


مِنْ أَخلَاقِ النُّبُوَّة
(٦)

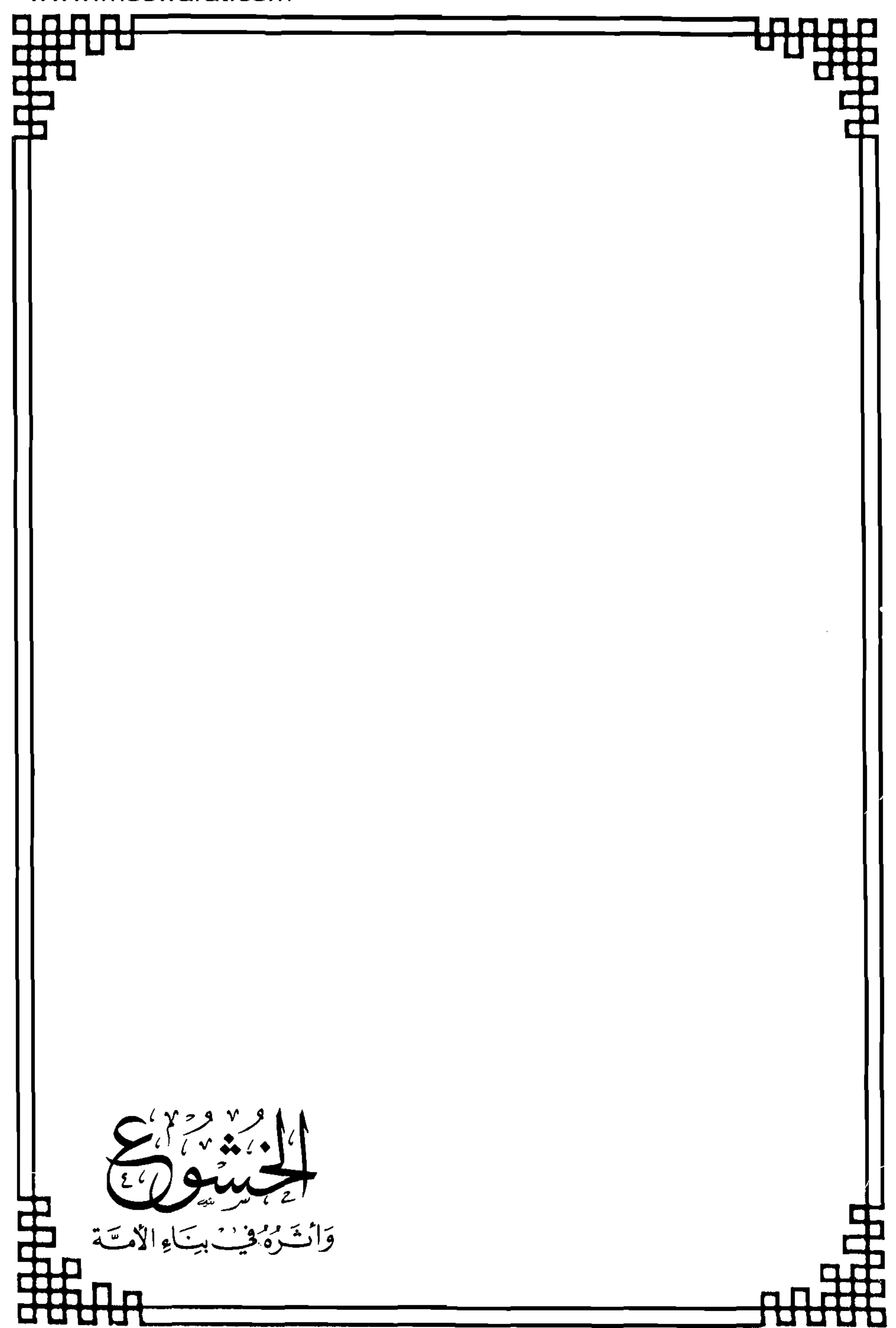
# الخشوع

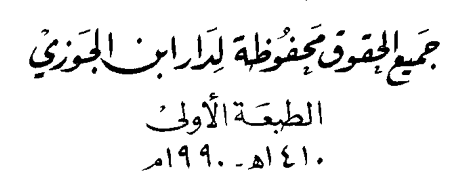
## وَأثرُهُ في بِنَاءِ الأمَّة

تأليف
سليم بن عيد الهلالي

دار ابن الجوزي


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

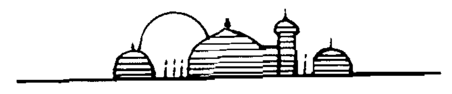

الخشوع
وأثره في بناء الأمة





الطبعة الأولى

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م


دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية

الدمام: شارع ابن خلدون ـ هاتف: ٨٤٢٨١٤٦ ـ ص. ب: ٢٩٨٢ ـ الرمز البريدي: ٣١٤٦١

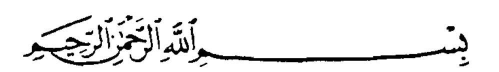
الأحساء: الهفوف ـ شارع الجامعة ـ هاتف: ٥٨٢٤٦٧٢ ـ ص. ب: ١٧٨٦

مِنْ أَخْلَاقِ ٱلنُّبُوَّةِ
(٣)

# الخشوع
## وَأَثَرُهُ في بِنَاءِ الأُمَّةِ

تأليف
سليم بن عيد الهلالي

دار ابن الجوزي

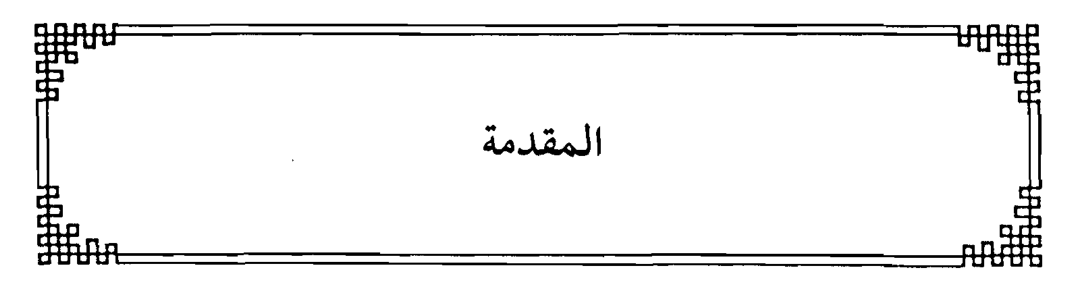


قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعالى:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ ومَا نَزَلَ مِن الحَقِّ ولاَ يَكُونُوا كَالَّذينَ أُوتُوا الكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلوبُهُمْ وكَثيرٌ مِنْهُم فاسِقُونَ﴾.

[الحديد: ١٦]



# المقدمة

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرور أَنفسِنا، ومن سيِّئات أَعمالِنا، من يهده اللهُ؛ فلا مُضِلَّ له، ومن يضلِلْ؛ فلا هاديَ له.

وأَشهد أَنْ لا إِله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأَشهد أَنَّ محمداً عبدُه ورسولُه.

أَمَّا بعدُ:

فإن الأخلاق الفاضلة من عناصر بقاء الأمم قويةً عزيزةً؛ لأنها أصلٌ تقومُ عليه أوامر اللهِ في النفس الإنسانية، فإذا طُوِّعت هٰذه النفس على الخلق الكريم، والسلوك القويم؛ فإنها لا شكَّ راغبة في تعظيم شعائر الله، والتزام منهجِهِ.

ومَن أصدق من اللهِ حديثاً؟! فهو القائل:

﴿ذٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فإِنَّها مِنْ تَقْوى القُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

والأخلاق الكريمة صُلْبُ الشريعة، وجماعُ الدين الذي بعث اللهُ به

محمداً ﷺ بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى اللهِ بإذنه وسِراجاً منيراً، فلا بدَّ من تحقيقها في النفوسِ المؤمنة حتى تُفْلح وتقوم على أمر اللهِ.

وحسبُك أن تعلمَ في هٰذا المقامِ الكريمِ أنَّ اللهَ ـ سبحانَه وتعالى ـ بيَّنَ آياتِه وفصَّلها للناس؛ لتستقيمَ نفوسهم على محاسنِ الأخلاق وصالِحها، فقال:

﴿كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١١٧].

وضرب في كتابهِ أمثالَ التَّرغيب والتَّرهيب؛ لتَعْتَبِرَ النفوس، ويشتدَّ عودُها على مكارمِ الأخلاق:

﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [طه: ١١٣].

ويسَّر كتابه وأحكَمَهُ؛ لتَفْقَهَ النفوسُ مادةَ صلاحِها، ولا تحتاجَ جَهداً في إيضاحها:

﴿قُرْآنَاً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزُّمر: ٢٨].

ولما كانت هٰذه الحقيقة سنَّةً كونيةً شرعيةً؛ فإن كلمة المرسلين اتَّفقت على دعوة الناس إلى تحقيقها.

فهٰذا نوحٌ ـ أوَّل الرسل عليه الصلاة والسلام ـ يخاطبُ قومَه للقيام بهٰذا الأمر الذي عليه صلاحُهم دنيا وآخرة:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المُرْسَلِيْنَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوْحٌ أَلا تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِيْنٌ . فاتَّقُوا اللهَ وأَطِيْعُونِ . ومَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ العَالَمِينَ . فاتَّقُوا اللهَ وأَطِيْعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٥ ـ ١١٠].

وهٰذا أخو عادٍ ينذر قومه بالأحْقافِ مقرِّراً هٰذه الحقيقة:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ المُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِيْنٌ . فاتَّقُوا اللهَ وأَطِيْعُونِ . ومَا أَسْأَلُكُمْ عليهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ . أَتَبْنُونَ بكُلِّ رَيْعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ . وتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ . وإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ . فاتَّقُوا اللهَ وأَطِيْعُونِ . واتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُمْ بأَنْعَامٍ وبَنِيْنَ . وجَنَّاتٍ وعُيونٍ . إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عذابَ يَوْمٍ عَظِيْمٍ﴾ [الشعراء: ١٢٣ ـ ١٣٥].

وهٰذا المنهج الربَّاني لم يتغيَّر ولم يتبدَّل، ولم يستَنْكِفْ عن تقريره نبيٌّ ولا رسولٌ، فهي كلمةٌ واحدةٌ يقولها كل رسولٍ.

وربَّ قائلٍ يقول: هٰذه الآيات تحُضُّ على التقوى؛ فما بال الأخلاق قد حُشِرت في معناها، وأضحت لَبِنَةً في مبناها، وزهرةً تتوِّج مَغْناها؟!

إن التقوى هي مَعينُ الأخلاقِ الفاضلة، تمُدُّها؛ فتُرى غَضَّةً طريَّةً في حياة المؤمنين.

لقد كان رسول اللهِ ﷺ أحسن الناس خُلُقاً، وأتقاهم للهِ، وأعلمَهم به.

وبذٰلك تكون الأخلاق الطَّيِّبة هي التقوى التي تحجُبُ المؤمن عن حُرُمات اللهِ، وتعظِّمُ في قلبه شعائر اللهِ، فيراها المؤمنون خيراً ونماءً وبركةً في حياة المجتمع الربَّاني.

ولله درُّ معروفٍ الرَّصافيِّ القائلِ:

هِيَ الأخْلَاقُ تَنْبُتُ كَالنَّبَاتِ
إذا سُقِيَتْ بِمَاءِ المَكْرُمَاتِ

ومما يؤكد هٰذه البَدَهِيةَ، ويدفع أوهام بعض الناس ـ الذينَ نصَّبوا أنفسهم دُعاةً لإعادة دولة الخلافة الراشدةِ ـ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ:

«إِنَّما بُعِثْتُ لأتمِّمَ مكارِمَ (وفي رواية: صالحَ) الأخلاقِ»[1].

حيث بيَّنَ رسول اللهِ ﷺ أن إحدى مهمَّاتِه هي إرساء قواعد مكارمِ الأخلاق، وإتمام صالحِها، وبيان معاليها.

ألا يدلُّ هٰذا كلُّه على أنَّ للأخلاق دوراً هامّاً في إنشاء مجتمعِ الخلافةِ الراشدةِ، وأثراً بارزاً في استئنافِ الحياة الإسلاميةِ[2].

وبذٰلك؛ فالأخلاق التي جاء بها رسول اللهِ ﷺ ربَّانيَّةٌ مِن حيث مصدرُها وغايتُها، فمصدَرُها الوحي الإلٰهي: قرآن وسنَّةٌ، وغايتُها اللهُ ـ جلَّ جلاله.

ولذٰلك كانتِ الأخلاق في تصور خير القرونِ عقيدةً، فتبوَّأَت في حياتهم مكاناً عليّاً، فكَتَب التأْريخ سيرتهم بحروف معطَّرة، تُفْعِمُ الحياة على مرِّ عصورها وكرِّ دهورها فضيلةً وخيراً، وصلاحاً وإصلاحاً.

ولٰكنْ؛ خلفت خُلوفٌ اتبعوا الشهوات، وتخطَّفَتْهُمُ الشُّبُهات!!

فنظرتُ، فرأيتُ أن مشكلة الأمة الإسلامية هي مشكلة عقيدة وخُلُقٍ، فعَمَدتُ إلى المشاركةِ في حلِّها، فوضعتُ بين يدي المسلمين بضعةً وعشرينَ رسالةً تربويَّةً سلفيَّةَ المنهجِ[3]؛ راجِياً من اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ أن تكونَ

---

(١) صحيح بشواهده؛ كما بينته في رسالتي «مكارم الأخلاق» (ص ١٤)، نشر دار ابن القيم ـ الدمام.

(٢) وانظر لزاماً رسالتي السابقة (ص ١٠ ـ ١٧).

(٣) في سلسلتين: =

باعثاً لفقه الأخلاق من مرقده، ومجدِّداً له في مساره الصَّحيح الذي عمَّقه السلف الصالحُ ممارسةً وتطبيقاً في دنيا الناس.

لذلك؛ ينْبَغي على كلِّ داعية إلى اللهِ على بصيرةٍ أن يعطي قضيَّة الأخلاق اهتماماً كبيراً، ولكنْ ليس على حسابِ العقيدةِ والفقهِ!! فالعالم الرَّبَّانيُّ مَن أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه.

ولقد رأيتُ بالتَّتَبُّعِ والاستقراء: لآي القرآن، وحديثِ رسول اللهِ ﷺ الصحيح، وأقوالِ المربِّين الربَّانيِّينَ من السلف الصالح أن الخشوع قاسمٌ مشتركٌ بين الأخلاق والعقيدة والعمل، يغْذُوها بالخشيةِ للهِ، فتؤدِّي مقصودَها في النفس والقلبِ معاً، فأفرَدْتُه برسالةٍ مستقلَّةٍ، وها هي بينَ يديكَ، تنقُلُكَ في أفوافِ الخشوعِ، فإذا السكينةُ شعارُك، والطُّمأنينةُ دثارُك، والحياة الطيبة بجوارك، فدونَكَ الهدى فشارِك.

وأسأل اللهَ العليَّ العظيمَ البَرَّ الرحيم أن ينْسَأَ في أثري، ويباركَ في عملي، ويجعَلَهُ خالصاً لوجهه الكريم، مبرَّءاً من أعراضِ الدُّنيا الفانية، لا رياء فيه ولا سمعةَ، ويدَّخِرَ لي ثوابهُ إلى يوم لِقائه، ويكتُبَه في صحائف حسناتي، ويتقبَّلَه بقبولٍ حسنٍ نصرةً لدينِه.

ورحِمَ اللهُ أخاً ناصحاً أميناً؛ وجدَ خللاً، فأرشدَني بالتي هي أحسنُ

---

= **الأولى**: الموسومة بـ «نحو أخلاف السلف»، وصدر منها: «مكارم الأخلاق»، و«الصبر الجميل»، و«مكفرات الذنوب»، و«مبطلات الأعمال»، و«التواضع»، و«الحب والبغض في الله».

**والأخيرة**: الموسومة بـ «من أخلاق النبوة»، وصدر منها: «حلاوة الإيمان»، و«الحياء»، و«الخشوع».

للتي هي أقومُ؛ فإنِّي متقلِّدٌ منَّتَهُ آخرَ عُمُري .

وعلى اللهِ قصدُ السبيلِ .

وكتبَهُ

حامـداً لربـه ومصليـاً ومسلمـاً على رسول اللهِ ﷺ الذي أنقذَنا اللهُ به من الظُّلمات والعمى إلى النور والهدى

أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي

ليلة الأربعـاء لسبـع ليـالٍ خَلَوْنَ من جمـادى الأولى سنـة ألف وأربع مئة وعشر من هجرة رسول اللهِ محمدِ بنِ عبدالله ﷺ في عمان البلقاء عاصمة الأردن

OOOOO

# ( ١ )
# الخُشوعُ لغةً

اعلم أيها العبد المُخْبِتُ ـ أيَّدَكَ اللهُ بروح منه ـ أن الخشوع في اللسان العربي المُبينِ هو الانخفاض، والذُّلُّ، والسكون.

ومنه قوله ـ عزَّ وجلَّ:

﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ للرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إلاَّ هَمْساً﴾ [طه: ١٠٨].

فخشوع الأصوات هو سكونها وخضوعها وانخفاضها بعد ارتفاعها.

وقد وصف الخلَّاق العليم في كتابه الكريم الأرض بالخشوع، فقال:

﴿ومِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فإذا أَنْزَلْنا عَلَيْها المَاءَ اهْتَزَّتْ ورَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩].

فاهتزازُها ورُبُوُّها ـ أي: ارتفاعها بالرِّيِّ والنبات ـ مزيل لخشوعها؛ فعلم أن الخشوع الذي كانت عليه هو سكونها وانخفاضها.

والخشوع قريبٌ من الخضوع، غير أن الخضوع في البدن، بينما الخشوع ينتَظِمُ جوارِح العبد جميعها؛ كما سيأتي مفصَّلاً ـ إن شاء الله.

والخاشعُ هو الذي يُرى عليه أثر الذل؛ كخشوع الدار بعد الإقواء؛ كما في قول نابغةِ ذُبيانَ:

رَمَادٌ كَكُحْلِ العَيْنِ لأياً أُبِيْنُهُ
ونُؤْيٌ كَجِذْمِ الحَوْضِ أَثْلَمُ خَاشِعُ

○○○○○

## ( ٢ )
## الخُشوعُ شَرْعاً

اعلم أيها الأخ الراشدُ في مسلكِهِ وفِعالِه أن الخشوعَ عندَ العالِمينَ بدينِ اللهِ: هو لينُ القلبِ، وسكونُ خَواطرِهِ وإراداتِه الرَّديئةِ التي تنشأُ عن اتِّباعِ الهَوَى، وانكسارِهِ للهِ، فيزولُ ما فيهِ من التَّعاظُمِ والتَّرَفُّعِ والتكَبُّرِ، حينئذٍ يستولي الموقفُ بين يدي المعبود الحقِّ، فلا يتحرَّك العبد إلَّا حيث يؤمَر، ولا يسكن إلَّا حيث يؤمَر.

ولذلك؛ فإن الخشوع:

التزامٌ عمليٌّ بطاعة اللهِ ـ جلَّ جلالُهُ ـ وتركُ المعصية.

هيئةٌ في النفس المطمئنَّة يظهر منها على الجوارح سكونٌ ووَقارٌ.

تأثُّرُ القلب بجلالِ الله، واستحضار عظمته وهيبته.

قيامُ القلب بين يدي الله ـ عزَّ وجل ـ بالخضوع والذُّلِّ.

إشراق أنوار التعظيم في القلب، وخمود نار الشهوات والشبهات.

قبولٌ وانقيادٌ للحقِّ إذا خالف الهوى والمراد.

وهكذا يكون الخشوع معنىً شرعيّاً، وسلوكاً سنيّاً ينتَظِمُ فيه الذُّلُّ والانكسار والانقياد لله رب العالمين، ويلتئم التعظيم والمحبة والوقار للحق المبين.

○○○○○

## ( ٣ )

## الخُشوعُ ينتَظِمُ جوارِحَ العبد جميعاً

علمت أيها العبد الخاشع ـ عُلِّمْتَ الخيرَ ـ أن أصل الخشوع يحصل في القلب، فإذا خشع القلب؛ تبعهُ خشوع جميع الجوارح والأعضاء؛ لأنها تابعة له. قال رسول الله ﷺ:

«الحَلالُ بيِّنٌ، والحرامُ بيِّنٌ، وبينَهُما مُشَبَّهاتٌ لا يعلَمُها كثيرٌ من الناسِ، فمَنِ اتَّقى المُشَبَّهاتِ؛ استبْرَأَ لدينه وعِرضِهِ، ومَن وقع في الشُّبُهات؛ كراعٍ يرعى حولَ الحِمى يوشِكُ أَنْ يواقِعَهُ، أَلا وإِن لكل ملك حمى، أَلا إِن حمى اللهِ محارِمُه، **أَلا وإِنَّ في الجسدِ مضغةً، إذا صَلَحَتْ؛ صَلَحَ الجسدُ كلُّهُ، وإذا فسدَتْ؛ فسدَ الجسدُ كلُّهُ، أَلا وهيَ القلبُ**»[1].

وخص القلب بذلك؛ لأنه أمير البدن، وبصلاح الأمير تصلح الرعية، وبفساده تفسد.

فإذا خشع القلب؛ خشع السمع، والبصر، والرأس، والوجه، وسائر الأعضاء، وما ينشأ عنها، حتى الكلام.

لهذا كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه في الصلاة:

«... اللهُمَّ لكَ رَكَعْتُ، وبِكَ آمنْتُ، ولكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لك سَمْعي وبصري ومُخِّي وعظْمي وعَصَبي...»[2].

(١) أخرجه البخاري (١ / ١٢٦ ـ الفتح)، ومسلم (١٥٩٩)، وغيرهما؛ من حديث النعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما.

(٢) جزء من حديث علي الطويل في صفة صلاة رسول الله ﷺ.
أخرجه مسلم (٦ / ٥٧ ـ ٦٠ ـ نووي)، وغيره.

وكذلك وصف الله وجوه الكفَّار يوم القيامة بالخشوع ؛ قالَ ـ تعالى :

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ [الغاشية : ٢] .

ووصف أبصارهم بالخشوع في ذلك اليوم ، فقال :

﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [القلم : ٤٣ والمعارج : ٤٤] .

وقالَ ـ سبحانَه :

﴿خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر : ٧] .

وبيَّنَ أن ذلك تابع لخشوع قلوبهم ؛ خوفاً أن يردُّوا إلى العذاب :

﴿قُلُوبٌ يومَئِذٍ واجِفَةٌ . أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ . يَقُولونَ إِئِنَّا لَمَرْدُودُونَ في الحَافِرَةِ﴾ [النازعات : ٨ ـ ١٠] .

وقرَّر ـ سبحانه ـ أنَّ ذلك من الذُّلِّ الذي يعتريهم يوم لا ينفع مال ولا بنون ، حين يُعْرَضون على النار :

﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ [الشورى : ٤٥] .

فدلَّ ذلك كله على دخول الخشوع في هذه الأعضاء كلِّها .

ooooo




## ( ٤ )
# الخُشُوعُ عِلْمٌ نَافِعٌ

اعلَمْ أيها المحبُّ ـ لا زلتَ موصولاً بما تحبُّ ـ أن العلم النافع هو ما باشَرَ القلوبَ، فأوجب لها السَّكينة، والخشيةَ، والإخباتَ للهِ، والتواضع والانكسارَ للهِ، وكل أُولٰئكَ رشحٌ من فيض الخشوع.

ولذٰلك كان رسول الله ﷺ يستعيذُ بالله من قلبٍ لا يخشعُ، وعلمٍ لا ينفع.

عن زيد بن أرقم؛ أن النبي ﷺ كانَ يقول:

«اللهُمَّ إنِّي أَعوذُ بكَ مِنْ عِلْمٍ لا ينفَعُ، وقلبٍ لا يخشَعُ، ومِن نفسٍ لا تشبَعُ، ومِن دعوةٍ لا تُسْتجابُ»(١).

وفي هٰذا بيانُ أن القلب الذي لا يخشعُ؛ علمهُ لا ينفع، وصوتُه لا يُسمع، ودعاؤُه لا يُرفع؛ لأنه غافل لاهٍ منهوم بالدنيا.

ولذٰلك ينبغي للعبد السالك سبيل الخشوع أن يتفقَّد نفسه بين الفَيْنَة والأخرى، ويتعاهَدَ إخوانه تذكيراً ونصحاً وإشفاقاً؛ لأن الخشوع أشد تفَصِّياً من الإبل في عقلها، فهو أول علم يُرْفَعُ من بين هٰذه الأمة.

عن شدَّاد بن أوس؛ أن رسول الله ﷺ قالَ:

«إنَّ أَوَّلَ ما يُرْفَعُ مِن الناسِ الخشوعُ»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧١٨٣) مرفوعاً.

وأخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص ٦٢)، والنسائي في «الكبرى» كما =

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

= في «تحفة الأشراف» (١ / ٢١١)، والبيهقي في «المدخل» (٤٥١ ـ ٤٥٢)، والحاكم (١ / ٩٨ ـ ٩٩)، وابن حبان (١١٥ ـ موارد)، والبزار (٢٣٢ ـ الكشف)، والخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم العمل» (ص ١٨٩)، والطبراني في «الأوائل» (٨١)، و«الكبير» (١٨ / ٤٢) موقوفاً؛ من طرق الليث عن إبراهيم بن أبي عبلة عن الوليد بن عبدالرحمٰن الجرشي عن جبير بن نفير؛ قال: حدثني عوف بن مالك الأشجعي:

أن رسول الله ﷺ نظر إلى السماء، فقال: «هٰذا أوان رفع العلم».

فقال رجل من الأنصار يقال له زياد بن لبيد: يا رسول الله! يُرْفَع العلم وقد أثبت ووعته القلوب؟!

فقال رسول الله ﷺ: «وإن كنت لأحسبك أفقه أهل المدينة!».

ثم ذكر ضلالة اليهود والنصارى على ما في أيديهم من كتاب الله.

قال جبير بن نفير: فلقيت شداد بن أوس، وحدثته بحديث عوف بن مالك، فقال: صدق عوف. ثم قال: ألا أخبرك بأول ذٰلك؟

قلت: بلى.

قال: الخشوع، حتى لا ترى خاشعاً.

قلت: وتابعه محمد بن حمير الحمصي عند أحمد (٦ / ٢٦ ـ ٢٧)، وأبي نعيم في «حلية الأولياء» (٥ / ١٣٨ و٢٤٧)، وابن عبدالبر في «جامع بيان العلم» (١ / ١٥٢).

وقال الحاكم:

«صحيح على شرط الشيخين».

ووافقه الذهبي.

قلت: بل هو صحيح على شرط مسلم فقط؛ فإن الوليد بن عبدالرحمٰن الجرشي وجبير بن نفير لم يخرِّج لهما البخاري!!

واختلف في كلام شدَّاد بن أوس؛ أهو موقوف أم مرفوع؟

قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (١ / ٣٥١):

«ورواه ابن حبان في «صحيحه» في آخر الحديث موقوفاً على شداد بن أوس، ورفعه =

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

= الطبراني أيضاً، والموقوف أشبه».

قلت: بل المرفوع أشبه؛ لأمرين:

١ ـ أنه أمر لا يقال بالرأي والاجتهاد.

٢ ـ أن له شواهد؛ منها:

عن أبي الدرداء رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال:

«أول شيء يُرفع من هٰذه الأمة الخشوع، حتى لا ترى فيها خاشعاً».

أخرجه الطبراني بإسناد حسن.

وروي موقوفاً زيادةً في آخر الحديث:

أخرجه الترمذي (٥ / ٣١)، والدارمي (١ / ٨٧)، والحاكم (١ / ٩٩)، والبيهقي في «المدخل» (ص ٤٥٢ ـ ٤٥٣)؛ من طريق عبدالله بن صالح: حدثني معاوية عن عبدالرحمٰن بن جبير عن أبيه عن أبي الدرداء: (وذكر مثل حديث عوف بن مالك).

قال جُبير بن نفير:

فلقيت عبادة بن الصامت، فقلت: ألا تسمع ما يقول أبو الدرداء؟ فأخبرته بالذي قال أبو الدرداء.

قال: صدق أبو الدرداء، إن شئت لأحدثنك بأول علم يرفع من الناس، يوشك أن تدخل مسجد جماعة فلا ترى رجلاً خاشعاً.

قال الحاكم:

«هٰذا إسناد صحيح من حديث البصريين. . . ولعل متوهماً [يقول:] إن جبير بن نفير رواه مرة عن عوف بن مالك الأشجعي ومرة عن أبي الدرداء، فيصير به الحديث معلولاً.

وليس كذٰلك؛ فإن رواة الإسنادين جميعاً ثقات، وجبير بن نفير الحضرمي من أكابر تابعي الشام، فإذا صح الحديث عنه [بـ] الإسنادين جميعاً؛ فقد ظهر أنه سمعه من الصحابيَّين جميعاً.

والدليل الواضح على ما ذكرته أن الحديث قد روي بإسناد صحيح عن زياد بن لبيد الأنصاري الذي ذكر مراجعته رسول الله ﷺ في الحديثين». =

# ( ٥ )
# عِتابٌ إلٰهِيٌّ

لقد أنزلَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ على البشر ذِكراً يجلو عن أبصارهم وبصائرهم حجب الشهوات الملتهبة، فتشرق قلوبهم بأنوار المحبة والتعظيم لله الذي فطرهم، فيَرِثوا ذُلًّا وخضوعاً وسكينة وسكوناً لربِّهم الكبير المتعال.

ولم يمض على تنزُّل هٰذا الشفاء بضع سنين حتى عاتبهم ربُّهم؛ لأنهم لم يصِلوا إلى المنزلة التي يريدها لهُم، فاستَبْطَأَ المؤمنين بقوله ـ تعالى:

**﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ ومَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ ولاَ يَكُونُوا كَالَّذينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الأمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وكَثِيرٌ مِنْهُم فَاسِقُونَ . اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي والأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَيَّنَّا لكُم**

---

ووافقه الذهبي.

قلت: لي مؤاخذتان على كلام الحاكم:

١ ـ إسناد هٰذا الحديث فيه ضعف؛ لأن عبدالله بن صالح كاتب الليث ضعيف من قبل حفظه، لكن لا بأس به في الشواهد.

فلعل هٰذا الإسناد من أوهامه؛ لأنه قد توبع على إسناد حديث عوف بن مالك، فقد تابعه يحيى بن بكير عند الطبراني، وعبدالله بن وهب عند ابن حبان.

ولكنه لم يتابَع على هٰذا الإسناد، والله أعلى وأعلم.

٢ ـ أن ما ذكره من صحة إسناد زياد بن لبيد الأنصاري فغير صحيح؛ لأنه إسناد منقطع؛ كما بينته في «التخريجات الكبرى لأحاديث الوصية الصغرى» (ص ٦٣).

ولكنه حديث ثابت؛ كما بينته في المصدر السابق (ص ٦٤).

**الآياتِ لعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾** [الحديد: ١٦ ـ ١٧].

قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه:

«ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتَبَنا الله بهٰذه الآيةِ: **﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ﴾** إلَّا أربع سنين»[1].

إنها رنة عتاب للمؤمنين الذين لم يبلغوا قمة الخشوع، حيث تدلُّ حركتهم البطيئة في السعي على ضعفٍ لا يرضاه الله للعُصْبَةِ المؤمنة الأولى التي حملت المنهجَ الرَّبَّانيَّ لتبليغه للناس كافة؛ لأنها جيل القدوة الذي استوى على سوقه في أحضان النبي الأسوة ﷺ.

ولذٰلك كانَ هٰذا التلويح بما كان عليه أهل الكتاب قبلَهم من قسوةٍ في القلوب تورِث الفسق في الأعمال.

ومن هنا كانَ التحذير الشديدُ مِن المآل الذي انتهى إليه أهل الكتاب بطول الأمد.

ولكنْ؛ أيَّتُها النفسُ الإنسانيَّةُ! لا تيأسي؛ فإن الله يحيي القلوب بعد قسوتِها، ويهدي الحَيارى بعد ضلَّتها، ويفرِج الكروب بعد شدَّتها؛ كما يحيي الأرض الخاشعة المجدبة الهامدة بالغيث الهتَّان الوابل، كذٰلك يحيي القلوبَ القاسيةَ ببراهين القرآن والدَّلائل، فيولِجُ إليها النور بعد أن كانت مقفلةً لا يصلُ إليها واصِل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضَّلال، والمضلَّ لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعَّال، وهو الحكيم العَدْل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال.

بهٰذه الأمور المجتمعة التي تأخذ بتلابيب القلوب إلى رحاب

---

(١) أخرجه مسلم (١٨ / ١٦٢ ـ نووي).

الخشوع، حيث الرحمة والطمأنينة، صاغ العليم عتابه المؤثر الحاني المستبطىء للاستجابة الكاملة من تلك القلوب التي أفاض عليها باريها من فضله، فبعث فيهم رسولاً من أنفسهم يدعوهُم لما يُحْييهم:

**﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اسْتَجِيْبُوا للهِ ولِلرَّسُولِ إذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بينَ المَرْءِ وقَلْبِه وأَنَّهُ إِليهِ تُحْشَرُونَ﴾** [الأنفال: ٢٤].

ومرة أخرى يدعو الله الذي آمنوا ليستجيبوا للهِ وللرسول الذي يدعوهُم لما يحييهم... إنها دعوةٌ إلى الحياةِ بكل صور الحياة، وبكل معاني الحياة، وإن الإسلام لهُو الحَيوان.

إنه يدعوهم إلى عقيدة تحيي القلوب والعقول، وتطلقها من آصار الجهل والخرافة، ومن ضغط الوهم والأسطورة، ومن الخضوع المُذِلِّ للأسباب الظاهرة والحتميات القاهرة، ومن العبودية لغير الله، والمذلَّة للعبد أو الشهوات سواء.

ويدعوهم إلى شريعة تعلن تكريم الإنسان؛ بصدورها عن اللهِ وحده، حيث يقف الناس صفّاً كأسنان المشط؛ لا يتحَكَّمُ فردٌ في شعبٍ، ولا طبقةٌ في أمَّة، ولا جنسٌ في آخر... لٰكنَّهم جميعهم أحرارٌ في ظل دين الله ـ عزَّ وجل.

ويدعوهُم إلى منهجٍ للحياة، ومنهجٍ للفكرِ؛ يطلقهم من كل قَيْدٍ؛ إلا ضوابط الفطرة التي وضعها خالقها العليم بما خلق.

ويدعوهُم إلى القوَّة والعزَّة بعقيدتِهم ومنهجهم، والثقة بربهم ودينهم؛ للانطلاق في الأرض كلِّها؛ لتحرير الإنسان من أوهاق عبوديةِ العباد إلى حبل الله وحده، حيث تتحقَّق إنسانيةُ الإنسان، وأخوَّة البشر التي

وهبها الله لهم، فاستَلَبَها الطُّغاةُ الذين عَلَوْا في الأرضِ، وجَعَلوا أهلَها شيَعاً.

إلى هٰذا يدعوهُم الرَّسول ﷺ، إنه منهج حياةٍ كاملةٍ، واقعيٌّ، تنمو الحياة في ظلاله وتترقَّى...

إنه استِجاشةُ الشعور بجلال الله، والخشوع لذكرِه، وتلَقِّي الحق من الحق بما يليق بجلال الحق؛ من طاعة واستسلام، مع رائحة الاستبطاء والتَّنديد بصيغة السؤال الاستنكاري.

عتابٌ فيهِ عقوبة التباطؤ والتقاعُس عن الاستجابة الكاملة ظاهراً وباطناً.

عتابٌ فيه بيانُ ما يغشى القلوب من الصَّدَإِ حين يلقي عليها الدهر بجرانهِ دون جِلاءٍ، وما تصير إليه من القسوة بعد اللين حينَ تنسى ذكرَ الله، فلا تخْشَعُ للحقِّ.

واعلم ـ أيها العبدُ المطمئنُّ قلبه بذكر الله ـ أنَّه ليس وراء قسوة القلوب إلا الفسق عن أمر الله؛ لأن هٰذا القلب سريعُ التقلُّب، وسريعُ النسيان، وهو يشفُّ ويرفُّ ويشرقُ ويفيض كالشعاع، فإذا طال عليه الأمد بلا تذكير؛ غلظ حجابه، وغلقت أبوابه، فتلَبَّدَ وقسى وانطمسَتْ إشراقته؛ فأظلم وأعتم.

﴿**واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وقَلْبِهِ**﴾.

يا لها من صورةٍ رهيبةٍ مخيفةٍ للقدرةِ اللطيفةِ... ﴿**يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وقَلْبِهِ**﴾، فيفصِلُ بينَه وبينَ قلبِهِ الذي بينَ جَنْبَيْهِ، ويستَحْوِذُ على هٰذا القلب، ويحتجِزُه، فيصرِّفُهُ كيفَ شاءَ، ويقلِّبُهُ كيف يريد، وصاحبه لا

يملِك منه شيئاً، وهو قلبُه الذي في صدره!!

إنها صورة تستوجِب اليقظة الدائمةَ، والحذَرَ المستمرَّ، والاحتياطَ المتواصِلَ: اليقظَةَ لخلجاتِ القلب وخفقاتِه ولفتاته، والحذر من هواجسهِ ووساوسه، والاحتياط من سهواته وغفلاته ودفعاته؛ خشيةَ أن يزيغ.

ولذلك كان سيد الخاشعين رسول الله ﷺ يكثِر من دعاء ربه.

«اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ والأبْصَارِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلى طَاعَتِكَ»(١).

إنها صورة تهزُّ القلب حقّاً، فيجد المؤمن رجفة في كيانه حين يخلو إلى نفسه لحظاتٍ؛ ناظراً إلى قلبه الذي بين جنبيه، وهو بين أصبعين مِن أصابع القاهر فوق عباده، فلا يملك منه شيئاً، وإن كان يحملُهُ ويسيرُ. . . اللهُمَّ إلا الدُّعاء المأثور عن البشير النذير ﷺ.

صورة يعرِضُها القرآن على الذين آمنوا وهو يناديهم:

**﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اسْتَجِيْبُوا لِلهِ ولِلرَّسُولِ إذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.**

إن اللهَ قدير؛ لو شاء قهَـرَكُم على الهُدي، وعلى الاستجابةِ التي يدعوكم إليها هٰذه الدعوة، فقلوبكم بين يديه، وأنتم محشورون إليه، فما لكم من دونه مفرٌّ.

ولكنـه يدعـوكُم؛ لتستجيبـوا استجابة الحرِّ عن طواعيةٍ تنالون بها الأجر، وعن إرادة مبصرة ترتفع بكم إلى مستوى الأمانة التي حُمِّلْتُموها.

لذٰلـك؛ لا بدَّ من اليقـظة الـدائمة؛ كي لا يصابَ القلب بتلبُّد،

---

(١) أخرجه مسلم (١٦ / ٢٠٤ ـ نووي) وغيره من حديث عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما.

وتعتريه القساوة.

واعلموا ـ عباد الله ـ أنه لا يأْسَ من قلب خمد وجمد، وقسا وتبلَّد؛ فإنه يمكن أن تدبَّ فيه الحياة، وأن يشرِقَ فيه فجرٌ جديد، وأن يُخْبِتَ لذكر الله؛ فإن الله ـ جلَّ جلاله ـ يحيي الأرض بعد موتِها، فتراها تنبِضُ بالحياة، وتفيض بالدفء، وتُنْبِتُ من كل زوجٍ بهيجٍ، وتمنحُ كل طيِّبٍ، وكذلك القلوب حين يشاء مقلِّب القلوب... فيا مصرِّفَ القلوب! ثبِّت قلبي على طاعتك، ولا تَكِلْني إلى نفسي طرفة عين.

ооооо

# ( ٦ )
# فَضَائِلُ الخُشُوعِ

## (٦ ـ ١) طوبى للخاشِعين :

لقد لبَّى الخاشِعون نداء الله لحياة طيِّبة، فاستحقُّوا البشرى، ومَن بشَّره الله؛ فلا خوف عليهم ولا هم يحزَنون، فرِحين بما أعدَّ الله لهم.

قالَ ـ تعالى :

﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وبَشِّرِ المُخْبِتِينَ﴾ [الحج : ٣٤].

## (٦ ـ ٢) المغفرة :

وأُولى المنـازل التي يحطُّ فيهـا الخاشِعون رحالَهم مغفرةٌ من الله ـ سبحانه ـ تَمْحَقُ السيئاتِ، وتُرْبي الحسنات؛ ليتضاعف أجرهم، ويزكو عمرهم.

## (٦ ـ ٣) الأجر العظيم :

فإذا انقلبوا إلى ربهم؛ وجدوا أجراً أعظم، ورضواناً أكبر ينتظرهم؛ بما قدَّموا في الأيام الخالية.

قال ـ تباركَ اسمه :

﴿وإنَّ مِنْ أَهْـلِ الكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ باللهِ ومَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ومَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِيْنَ للهِ لاَ يَشْتَرُونَ بآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَليلاً أُولَئكَ لهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إنَّ اللهَ سَرِيْعُ الحِسَابِ﴾ [آل عمران : ١٩٩].

وقالَ الغَفور الرحيم :

﴿إنَّ المُسْلِمِينَ والمُسْلِمَـاتِ والمُؤمنينَ والمُؤمِنَـاتِ والقَـانِتِين

والقَـانِتَـاتِ والصَّـادِقِينَ والصَّـادِقَاتِ والصَّابِرِينَ والصَّابِرَاتِ والخَاشِعِيْنَ والخَاشِعَاتِ والمُتَصَدِّقِينَ والمُتَصَدِّقَاتِ والصَّائِمين والصَّائِمَاتِ والحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ والحَافِظَاتِ والذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيْراً والذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وأَجْرَاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٣٥].

## (٦ ـ ٤) الخشوعُ سببُ الفَلاح:

ويمضي شوطُ فضائل الخشوعِ بتقرير الفَلاحِ للخاشعين... إنه الوعد الصادق، بل القرار الأكيد بفلاح الخاشعين، وعْدُ اللهِ لا يخْلِفُ اللهُ وعدَهُ، وقرار الله لا يملك أحد رده: الفلاح في الدُّنيا والآخرة معاً، فلاح الفرد والأمة، الفلاح الذي يحسه المؤمنون بقلوبهم، ويجدون مِصْداقه في واقع حياتِهم، والذي ينتَظِمُ جميع ما يتمنَّاه الناس من معاني الفلاح، وما لا يخطر على قلب بشر.

قال ـ عز شأنه:

﴿قَـدْ أَفْلَحَ المُؤمِنُـونَ . الَّـذينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُـونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٢].

## (٦ ـ ٥) الخشوعُ طريقُكَ إلى الجنة:

لقد شاء اللهُ أن يَصِلَ الخاشعون الذين سلكوا طريق الفلاح إلى قمّة الفلاح المقدَّرة لهم، هنالك في الفِرْدَوس الأعلى، دار الخلود بلا فناء، والأمن بلا خوف، والاستقرار بلا زوال.

قالَ ـ عزَّ وجلَّ:

﴿إنَّ الَّـذينَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أُولئكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيها خَالِدُونَ﴾ [هود: ٢٣].

وتلك غاية الفلاح الذي كتبه الله للمؤمنين، وليس بعدها من غاية تمتدُّ إليها عينٌ أو خيال، حيث يتقلَّبون في منازلها، ويرِثون أعلى دَرَجاتها.

قالَ ـ سبحانه وتعالى:

﴿أُولٰئكَ هُمُ الوَارِثُونَ . الَّذينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠ ـ ١١].

### (٦ ـ ٦) الخشوع ثباتٌ على منهج اللهِ:

واعلم أيها العبد المُخْبِتُ أن مَن سلك طريقاً معالِمُه المغفرة، والأجر الجزيل، والفلاح، ونهايتُه جنَّةٌ عرضها عرض السماواتِ والأرض؛ فهو في ذِمَّةِ الله، يهديه الله بخشوعه سُبُلَ السلام.

قالَ ـ عزَّ ثناؤه:

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِيْنَ أُوْتُوا العِلْمَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذينَ آمَنُوا إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

○○○○○




# ( ٧ )
# صِفَاتُ الخَاشِعِينَ

## (٧ ـ ١) الخوفُ من الله:

وَصَفَ اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ الخاشِعين بالخوف من الله، فبمجرَّد ذكر اسم الله ـ تعالى ـ يتحرَّك الوجل في قلوبهم، فتقشَعِرُّ جلودهم، وذلك لقوَّة إيمانهم، ومراعاتهم لربِّهم وكأنَّهم بين يديه.

قالَ ـ تعالى:

﴿إِنَّمَا المُؤمِنُونَ الَّذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

وقالَ ـ عزَّ شأنه:

﴿فَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ المُخْبِتِينَ . الَّذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٤ ـ ٣٥].

وقالَ ـ جلَّ ثناؤه:

﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣].

## (٧ ـ ٢) البُكاء من خَشيةِ اللهِ:

مشهدٌ حيٌّ موحٍ يَلْمَسُ الوجدان، يرتَسِم لهٰذه الفئة من الذين أُوتوا العلم من قبلُ عندما يسمَعونَ ما أنزلَ الله على رسوله محمدٍ ﷺ من القرآن، فيُسْلِمون، ويخْشَعونَ، فلا يتمالَكون أنفسهم، فتهتزُّ مشاعِرُهم، وتَلين قلوبهم، ثم تنطلِق ألسنتهم بما خالجَ مشاعرهم من إحساس بعظمة الله، وصدق وعده، ويغلِبُهُمُ التَّأثُّر، فلا تكفي الألفاظ في تصوير ما يجيش في

صدورهم منه، فإذا الدموع تنطلق معبِّرة عن ذلك التأثُّر الغامر الذي تعجز الألفاظ عن تصويره.

نعم؛ لقد عجزتْ ألسنتهم عن التعبير، ففاضت أعيُنهم بالدمع الغزير، لقد بلغ التأثُّر درجة أعلى من أن يفي بها القول، فيخرون للأذقان يبكون؛ ليؤدوا ما لا يؤدِّيه القول، ولتنطَلِقَ الشحنة الحبيسة من التأثُّر العميق العنيف.

قالَ ـ تعالى:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذينَ آمَنُوا اليَهُودَ والَّذينَ أَشْرَكُوا ولَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً للَّذينَ آمَنوا الَّذينَ قَالُوا إنَّا نَصَارى ذلك بأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ ورُهْبَاناً وأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرونَ . وإِذا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إلى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُولونَ رَبَّنَا آمَنَّا فاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ . ومَا لَنَا لا نُؤمِنُ باللهِ ومَا جاءَنَا مِنَ الحَقِّ ونَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ القَوْمِ الصَّالِحِينَ . فأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ خَالِدينَ فِيها وذلكَ جَزَاءُ المُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٢ ـ ٨٥].

وفيهم قال ـ تعالى:

﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذينَ أُوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ للأَذْقَانِ سُجَّداً . ويَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّ وَعْدَ رَبِّنَا كَانَ مَفْعُولاً . ويَخِرُّونَ للأَذْقَانِ يَبْكُونَ ويَزِيْدُهُمْ خُشُوعاً﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩].

قالَ العلامة القرطبي ـ رحمه الله ـ في «الجامع لأحكام القرآن» (٦ / ٢٥٨):

«وهٰــذه أحــوال العلمــاء: يبكــون ولا يُصْعَقــون، ويســألــون ولا يصيحون، ويتحازنون ولا يتموَّتون».

**(٧ ـ ٣) الصبر على ما أصابهم:**

فلا اعتراض لهُم على قضاء الله فيهم.

**(٧ ـ ٤) إقامة الصلاة:**

فهُمْ يَعْبُدون الله حقَّ عبادته.

**(٧ ـ ٥) إيتاء الزَّكاة:**

فهم لا يضنُّـون على الله بمــا في أيديهم، فهم يعلمون أنهم وما يملكون لله ـ تعالى.

قالَ ـ تعالى:

﴿**وَبَشِّرِ المُخْبِتِينَ. الَّذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ والصَّابِرينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ والمُقِيمِي الصَّلاةِ ومِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ**﴾ [الحج: **٣٤** ـ **٣٥**].

**(٧ ـ ٦) تعظيم شعائر الله وآياته:**

إن تعظيم شعائر الله يتبعه التحرُّج من المساس بها سوءاً، أو القرب منها تعدياً، وذٰلك من تقوى القلوب، إذ إن التقوى هي غاية العبادة كلها.

قالَ علاَّمُ الغُيوب ومقلِّب القلوب:

﴿**ذٰلِكَ ومَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فإنَّها مِنْ تَقْوَى القُلُوبِ**﴾ [الحج: **٣٢**].

ولن يعظم شعائر الله إلا خاشعٌ لله، لا يخطو في حياتِه خطوةً، ولا يتحرك في ليله ونهاره حركة؛ إلا وهو ينظر فيها إلى الله، فإنه إن لم يكن

يراه؛ فإن الله يراه، فيجيش قلبه فيها بتقواه، ويتطلَّع فيها إلى وجهه ورضاه، فإن الحياة كلها عبادة تتحقَّق بها الغاية من خلق الإنس والجن، وتصلُح بها الأرض، وهي موصولة السبب بالسماء.

**(٧ ـ ٧) الإيمان بالله وكتبه:**

ولذٰلك؛ فهم ينقلون خطاهم على أثر منهج الله المنزَّل على مصطفاه من خلقه محمدٍ ﷺ.

قال ـ تعالى:

**﴿وإنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ باللهِ ومَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ومَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِيْنَ للهِ لا يَشْتَرُونَ بآياتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولٰئِكَ لهُمْ أَجْرُهُمْ عندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾** [آل عمران: **١٩٩**].

**(٧ ـ ٨) اليقين بلقاءِ الله وأنهم إليه راجِعون:**

إن اليقين بلقاء الله والرجعة إليه وحده في كل الأمور هو مناط التقوى والخشوع؛ لأنه مناط الوزن القيِّم للقِيَم: قِيَم الدُّنيا وقِيَم الآخرة، ومتى استقامَ الميزان في هٰذه القيم؛ بدتِ الدُّنيا كلها ثمناً قليلاً، وعَرَضاً هزيلاً، وبدتِ الآخرة على حقيقتها أحسن مقيلاً، وأهدى سبيلاً، لا يتردَّد عاقل في اختيارها وإيثارها؛ لأنه سيجد مقعد صدق عند مليك مقتَدِر.

قال اللهُ ـ جلَّ ثناؤه:

**﴿واسْتَعِيْنُوا بالصَّبْرِ والصَّلاَةِ وإِنَّها لَكَبيرَةٌ إلاَّ عَلى الخَاشِعِينَ. الَّذينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ وأَنَّهُمْ إليهِ رَاجِعُونَ﴾** [البقرة: **٤٥ ـ ٤٦**].

○○○○○




# ( ٨ )
# أَبوابُ الخُشوعِ

## (٨ ـ ١) الصلاة:

لقد شرعَ اللهُ لعباده من أنواع العبادات ما يظْهَرُ فيه خشوع الأبدان، الناشىء عن خشوع القلب وذله وانكساره، ومِن أعظم ذٰلك الصلاة، حيث مدَحَ الله ـ تعالى ـ الخاشِعين فيها بقوله:

﴿قَدْ أَفْلَحَ المُؤمِنُونَ . الَّذينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٢].

لأنها العبادة التي يستشعر فيها العبد رهبة الموقف بين يدي مولاه الحق خمس مرات في اليوم والليلة، فيسكن قلبه ويخشع، ويسري الخشوع إلى الجوارح والملامح والحركات، فيتوارى عن حسِّهم كل ما حولهم، وكل ما بهم، ويتطهَّرون من كلِّ دنس، وينفضون عنهم كل شائبة، فما يضمُّون جوانحَهم على شيءٍ من هٰذا؛ مع جلال الموقف بين يدي الله.

«والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمَن فَرَّغَ قلبه لها، واشتَغَلَ بها عمَّا عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون له راحة وقرة عين؛ كما قال النبيُّ:

«حُبِّبَ إليَّ الطِّيب، والنِّساءُ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصَّلاةِ»(١).

---

(١) صحيح. أخرجه النسائي (٧ / ٦١)، وأحمد (٣ / ١٢٨، ١٢٩، ٢٨٥)، وغيرهما؛ من حديث أنس ـ رضي الله عنه.

وكانَ يقولُ:

(أَرِحْنا بها يا بلالُ)[1]»[2] أ. هـ.

ولله دَرُّ القائلِ:

أَلا في الصَّلاةِ الخَيْرُ والفَضْلُ أَجْمَعُ
لأنَّ بِهَا الآرَابُ للـه تَخْضَعُ
وأَوَّلُ فَرْضٍ مِنْ شَرِيْعَةِ دِيْنِنا
وآخِرُ مَا يَبْقَى إِذِ الدِّيْنُ يُرْفَعُ
فَمَنْ قَامَ للتَّكْبِيْرِ لاقَتْهُ رَحْمَةٌ
وكَانَ كَعَبْدٍ بَابَ مَوْلاهُ يَقْرَعُ
وصَارَ لِرَبِّ العَرْشِ حِيْنَ صَلاتِهِ
نَجِيّاً فَيَا طُوبَاهُ لَوْ كَانَ يَخْشَعُ

**(٨ ـ ١ ـ أ) وجوب الخشوع في الصلاة:**

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ في «الجامع لأحكام القرآن» (١٢ / ١٠٤):

«اختلف الناس في الخشوع؛ هل هو من فرائض الصلاة، أو من فضائلها ومكملاتها؟ على قولين، والصحيح الأول، ومحلُّه القلب». أ. هـ.

والآن؛ يشدُّ عضدَكَ أخوك ببحث نفيس دبَّجَتْهُ يراعةُ شيخ الإسلام

(١) صحيح. أخرجه أبو داود (٤٩٨٥)، وأحمد (٥ / ٣٦٤)؛ من طريق مسعر بن كدام عن عمرو بن مرة عن سالم بن الجعد أن النبي ﷺ: (وذكره).

(٢) «تفسير القرآن العظيم»: ابن كثير، (٣ / ٢٤٩).

وشامة الشام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في «مجموع الفتاوى» (**٢٢ / ٥٥٣ ـ ٥٧٢**):

«. . . فقد قالَ اللهُ ـ تعالى:

**﴿واسْتَعِيْنُوا بالصَّبْرِ والصَّلاةِ وإنَّها لَكَبِيرَةٌ إلاَّ عَلى الخَاشِعِينَ﴾** [البقرة: **٤٥**].

وهٰذا يقتضي ذم غير الخاشعين؛ كقولِهِ ـ تعالى:

**﴿وما جَعَلْنَا القِبْلَةَ الَّتي كُنْتَ عَلَيْها إلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ على عَقِبَيْهِ وإنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إلاَّ عَلى الَّذينَ هَدَى اللهُ﴾** [البقرة: **١٤٣**].

وقوله ـ تعالى:

**﴿كَبُرَ عَلى المُشْرِكِيْنَ مَا تَدْعُوهُمْ إليهِ﴾** [الشورى: **١٣**].

فقد دل كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على مَن كبُرَ عليه ما يحبُّه الله، وأنه مذمومٌ بذٰلك في الدِّينِ، مسخوطٌ منهُ ذٰلك، والذمُّ أو السخط لا يكون إلا لترك واجبٍ، أو فعل محرَّمٍ، وإذا كان غير الخاشعين مذمومين؛ دلَّ ذٰلك على وجوب الخشوع.

فمِن المعلوم أن الخشوع المذكور في قوله ـ تعالى: **﴿وإنَّها لَكَبيرةٌ إلاَّ عَلى الخَاشِعِيْنَ﴾** [البقرة: **٤٥**]؛ لا بدَّ أن يتضمَّن الخشوع في الصلاة، فإنه لو كان المرادُ الخشوعَ خارج الصلاة؛ لفسد المعنى، إذ لو قيل: إن الصلاة لكبيرة إلا على مَن خشع خارِجَها، ولم يخْشَعْ فيها؛ كان يقتضي أنها لا تَكْبُرُ على مَن لم يخشَعْ فيها، وتكبرُ على مَن خشع فيها، وقد انتفى مدلول الآية، فثبت أن الخشوع واجبٌ في الصلاة.

ويدلُّ على وجوب الخشوع فيها أيضاً قولُه ـ تعالى :

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ . الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون : ١ ـ ١١] .

أخبر ـ سبحانه وتعالى ـ أن هٰؤلاء هم الذين يرثون فردوس الجنة، وذٰلك يقتضي أنه لا يرثها غيرهم، وقد دلَّ هٰذا على وجوبِ هٰذه الخصال، إذ لو كان فيها ما هو مستحبٌّ؛ لكانت جنة الفردَوْسِ تورَثُ بدونِها؛ لأنَّ الجنَّة تُنالُ بفعل الواجباتِ؛ دونَ المستحَبَّاتِ .

ولهٰذا لم يُذْكَرْ في هٰذه الخصالَ إلا ما هو واجب، وإذا كان الخشوع في الصلاة واجباً؛ فالخشوع يتضمَّنُ السكينة والتواضع .

ويدلُّ على وجوب الخشوع في الصلاة أنَّ النبي ﷺ توعَّدَ تاركيه؛ كالذي يرفَعُ بصره إلى السماء، فإنه حركه ورفعه، وهو ضد حال الخاشع .

فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ :

«ما بالُ أَقْوَامٍ يرفعونَ أَبصارَهُم إلى السماء في صلاتِهم» .

فاشتدَّ قولُه في ذٰلك، فقال :

«لَيَنْتَهُنَّ عن ذٰلك أو لَتُخْطَفَنَّ أبصارُهم»(١) .

---

(١) أخرجه البخاري (٢ / ٢٣٣ ـ الفتح) .

وعن جابر بن سمُرة قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد، وفيه ناسٌ يصلُّون رافعي أبصارهم إلى السماء، فقال:

«لينْتَهِيَنَّ رجالٌ يشخَصونَ أبصارَهم إلى السماء أو لا ترجِعُ إليهم أبصارُهم»[1] أ. هـ. باختصار.

ونصر القول بالوجوب رادّاً على النوويِّ الحافظُ العراقيُّ في كتابه المستطاب: «طرح التَّثريب في شرح التَّقريب» (٢ / ٣٧٢)، فانظره غير مأمور؛ فإنه من المهمات.

**(٨ ـ ١ ـ ب) الهيئات التي يظهَرُ فيها الخشوع[2]:**

**ـ وضع اليمين على الشمال في حال القيام قبل الركوع:**

ومما يظهر فيه الخشوع والذلُّ والانكسار من أفعال الصلاة: وضع اليدين إحداهما على الأخرى في حال القيام.

وقد رُوِي عن الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ أنه سئل عن المُرادِ بذٰلك، فقال:

«هو ذُلٌّ بينَ يدي عزيز».

قال علي بن محمد المصري الواعظ ـ رحمه الله تعالى:

«ما سمعتُ في العلم بأحسن من هٰذا».

وملاحظةُ هٰذا المعنى في الصلاة يوجب للمصلِّي أن يتذكَّرَ وقوفه بين يدي الله ـ تعالى ـ للحساب.

---

(١) أخرجه مسلم (٤ / ١٥٢ ـ نووي).

(٢) من رسالة الحافظ ابن رجب الحنبلي اللطيفة الموسومة بـ «الخشوع في الصلاة» (ص ٢٣ ـ ٢٩) بتصرف.

ـ **إقبال المصلي على الله ـ عز وجل ـ وعدم التفاته:**

ومن ذٰلك إقباله على الله ـ عز وجل، وعدم التفاته إلى غيره، وهو نوعان:

**أحدهما**: عدم التفات قلبه إلى غير ما هو مباحٌ له، وتفريغ القلب للرَّبِّ ـ عزَّ وجلَّ.

عن عمرو بن عبسة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ؛ أنه قال في فضل الوضوء وثوابه، ثم قال:

«فإن هو قام وصلَّى، فحمد الله، وأثنى عليه، ومجَّده بالذي هو أهله، وفرَّغ قلبه لله؛ انصرف من خطيئتِه كيوم ولَدَتْهُ أمُّه»[1].

**الثَّاني**: عدم الالتفات بالنظر يميناً وشمالاً، وقصر البصر على موضع السجود، وهو من لوازم خشوع القلب وعدم التفاته.

عن عائشة ـ رضي الله عنها:

سألتُ النبيَّ ﷺ عن الالتفات في الصلاة؟ فقال:

«هو اختلاسٌ يختلِسُهُ الشيطانُ من صلاة العبد»[2].

ـ **الركوع:**

ومن ذٰلك الركوع، وهو ذلٌّ بظاهر الجسد.

ولهٰذا كانت العرب تأنف منه، ولا تفعله؛ كما يظهر ذٰلك حين أراد بعضهم النبي ﷺ على أن لا يخرَّ إلا قائماً.

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم برقم (٨٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٢ / ٢٣٤ و٦ / ٢٣٨ ـ الفتح) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.

وتمام الخضوع في الركوع أن يخضعَ القلب لله، ويذلَّ له، فيتمَّ بذٰلك خضوع العبد بباطنه وظاهره لله ـ عزَّ وجل.

ولهٰذا كان النبيُّ ﷺ يقول في ركوعه:

«خشعَ لك سمعي وبصري ومخِّي وعظمي وما استقلَّ به قدمي»[1].

إشـارة إلى أن خشوعه في ركوعه قد حصل بجميع جوارحه، ومن أعظمها القلب، الذي هو مَلِك الجوارح، والأعضاء كلها تَبَعٌ له ولخشوعه.

**ـ السجود:**

ومِن ذٰلك السجود، وهو أعظم ما يظهر فيه ذلُّ العبد لربه ـ عز وجل، حيث جعل العبد أشرفَ أعضائه وأعزها عليه وأعلاها عليه حقيقة أوضعَ ما يمكِنُهُ، فيضعه في التراب متعفِّراً، ويتبع ذٰلك انكسارُ القلب، وتواضعه، وخشوعه للهِ ـ عز وجل.

ولهٰذا كان جزاء المؤمن إذا فعل ذٰلك أن يقرِّبَهُ اللهُ ـ عز وجلَّ ـ إليه، فإنه:

«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[2].

**ـ وصف الله بصفات الكمال ونعوت الجلال:**

ومن تمام خشوع العبد لله ـ عز وجل ـ وتواضعه له في ركوعه وسجوده أنه إذا ذَلَّ لربه بالركوع والسجود؛ وصف ربَّه حينئذ بصفات العز والكبرياء والعظمة والعلو، فكأنه يقول: الذلُّ والتواضع وصفي، والعلو والكبرياء

(١) جزء من حديث علي الطويل في صفة صلاة النبي ﷺ. أخرجه مسلم (٦ / ٥٧ ـ ٦٠ ـ نووي).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

وصفك .

ولهٰذا شرع للعبد في ركوعه أن يقول :

«سُبحانَ ربِّيَ العظيم» .

وفي سجوده :

«سُبحانَ ربِّيَ الأعلى»[1] .

**(٨ ـ ١ ـ ت) أمور تعين على الخشوع في الصلاة :**

**ــ عدم الالتفات في الصلاة :**

قال العلاَّمة ابن قيم الجوزية في «الوابل الصيِّب» (ص **٢٥ ـ ٢٩**) :

«وقوله في الحديث :

«وأمركم بالصلاة ، فإذا صلَّيتم ؛ فلا تلتفتوا ؛ فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت»[2] .

الالتفات المنهيُّ عنه في الصلاة قسمان :

**أحدهما** : التفات القلب عن الله ـ عز وجل ـ إلى غير اللهِ ـ تعالى .

**والثاني** : التفات البصر .

وكلاهما منهيٌّ عنه .

ولا يزال الله مقبلاً على عبده ما دام العبد مقبلاً على صلاته ، فإذا التفت بقلبه أو بصره ؛ أعرض الله ـ تعالى ـ عنه .

وقد سُئِلَ رسول الله ﷺ عن التفات الرجل في صلاته ، فقال :

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٢) من حديث حذيفة ـ رضي الله عنه .

(٢) جزء من حديث الحارث الأشعري الصحيح ؛ كما بينته في «صحيح الوابل الصيب» (ص ٤٠ ـ ٤١) ، وفصَّلت الرد على مَن ضعَّفه ، فانظره غير مأمور.

«اخْتِلاسٌ يختَلِسُهُ الشَّيطانُ من صلاةِ العبدِ».

ومَثَـلُ مَن يلتفت في صلاته ببصره أو بقلبه مَثَلُ رجل قد استدعاه السلطان، فأوقفـه بين يديه، وأقبل يناديه ويخاطبه، وهو في خلال ذٰلك يلتفت يميناً وشمالاً، وقد انصرف قلبه عن السلطان، فلا يفهم ما يخاطبه به؛ لأن قلبه ليس حاضراً معه.

فما ظنُّ هٰذا الرجل أن يفعل به السلطان؟!

أفليس أقل المراتب في حقه أن ينصرف من بين يديه ممقوتاً مُبْعَداً قد سقط من عينيه؟!

فهٰذا المصلي لا يستوي والحاضر القلب المقبل على الله ـ تعالى ـ في صلاته، الذي قد أَشْعَرَ قلبَه عظمةَ مَن هو واقف بين يديه، فامتلأ قلبُه من هيبته، وذلَّت عنقه له، واستحيى من ربه ـ تعالى ـ أن يقبل على غيره، أو يلتفت عنه، وبين صلاتيهما كما قال حسان بن عطية:

«إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة، وإن ما بينَهما في الفضل كما بين السماء والأرض».

وذٰلك أن أحدهما مقبلٌ بقلبه على الله ـ عز وجل، والآخر ساهٍ غافل.

فإذا أقبل العبد على مخلوق مثله وبينه وبينه حجاب؛ لم يكن إقبالاً ولا تقريباً، فما الظن بالخالق عز وجل؟!

وإذا أقبـل على الخـالق ـ عز وجل ـ وبينه وبينه حجاب الشهوات والوساوس، والنفس مشغوفة بها، ملأى منها، فكيف يكون ذٰلك إقبالاً وقد ألهته الوساوس والأفكار، وذهبت به كل مذهب؟!

والعبد إذا قام في الصلاة؛ غار الشيطان منه، فإنه قد قام في أعظم مقام، وأقربه وأغيظه للشيطان، وأشده عليه، فهو يحرص ويجتهد كل الاجتهاد أن لا يقيمه فيه، بل لا يزال به يعده ويمنِّيه وينسِّيه، ويجلب عليه بخليه ورجله، حتى يهوِّن عليه بشأن الصلاة، فيتهاون بها، فيتركها، فإن عجز عن ذٰلك منه، وعصاه العبد، وقام في ذٰلك المقام؛ أقبل عدو الله ـ تعالى ـ حتى يَخْطُرَ بينه وبين نفسه، ويحول بينه وبين قلبه، فيذكِّره في الصلاة ما لم يذكر قبل دخوله فيها، حتى ربما كان قد نسي الشيء والحاجة، وأيس منها، فيذكره إياها في الصلاة؛ ليشغل قلبه بها، ويأخذه عن الله ـ عز وجل، فيقوم فيها بلا قلب، فلا ينال من إقبال الله ـ تعالى ـ وكرامته وقربه ما يناله المقبل على ربه ـ عز وجل، الحاضر بقلبه في صلاته، فينصرف من صلاته مثل ما دخل فيها بخطاياه وذنوبه وأثقاله لم تخف عنه بالصلاة، فإن الصلاة إنما تكفِّر سيئات مَن أدى حقَّها، وأكمل خشوعها، ووقف بين يدي الله ـ تعالى ـ بقلبه وقالبه.

فهٰذا؛ إذا انصرف منها؛ وجد خفة من نفسه، وأحس بأثقال قد وضعت عنه، فوجد نشاطاً وراحةً وروحاً، حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها؛ لأنها قرة عينيه، ونعيم روحه، وجنة قلبه، ومستراحه في الدنيا، فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتى يدخل فيها، فيستريح بها لا منها، فالمحبون يقولون: نصلي فنستريح بصلاتنا؛ كما قال إمامهم وقدوتهم ونبيُّهم:

«يا بِلالُ! أَرِحْنا بالصَّلاةِ»(١).

---

(١) مضى تخريجه (ص٣٢)، وانظر: «صحيح الوابل» (ص٤٧).

ولم يقل: أرحنا منها.

وقال ﷺ:

«جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْني في الصَّلاةِ»[1].

فمن جُعِلَتْ قرَّة عينه في الصلاة؛ كيفَ تَقَرُّ عينه ﷺ بدونها؟! وكيف يطيق الصبر عنها؟!

فصلاة هٰذا الحاضر بقلبه، الذي قرة عينه في الصلاة، هي التي تصعد ولها نور وبرهان، حتى يستقبل بها الرحمٰن ـ عزَّ وجلَّ.

وأما صلاة المفرِّط المضيِّع لحقوقها وحدودها وخشوعها؛ فإنها تُلَفُّ كما يُلَفُّ الثوبُ الخَلَقُ، ويُضْرَبُ بها وجه صاحبها.

فالصلاة المقبولة والعمل المقبول: أن يصلي العبد صلاةً تليق بربه ـ عز وجل، فإذا كانت صلاة تصلح لربه ـ تبارك وتعالى ـ وتليق به؛ كانت مقبولة.

والمقبول من العمل قسمان:

**أحدهما**: أن يصلي العبد ويعمل سائر الطاعات وقلبه متعلِّقٌ بالله ـ عز وجل ـ ذاكر لله ـ عزَّ وجلَّ ـ على الدوام، فأعمال هٰذا العبد تُعْرَض على الله ـ عز وجل ـ حتى تقف قُبالته، فينظر الله ـ عز وجل ـ إليها، فإذا نظر إليها؛ رآها خالصة لوجهه، مرضية، وقد صدرت عن قلبٍ سليم مخلص محبٍّ لله ـ عز وجل ـ متقرِّب إليه، أحبها ورضيها وقبلها.

**والقسم الثاني**: أن يعمل العبد الأعمال على العادة، وينوي بها الطاعة والتقرُّب إلى الله، فأركانه مشغولة بالطاعة، وقلبه لاهٍ عن ذكر الله،

(١) مضى تخريجه (ص٣١)، وانظر: «صحيح الوابل» (ص٤٧).

وكذٰلك سائر أعماله، فإذا رُفِعَت أعمال هٰذا إلى الله ـ عز وجل ؛ لم تقف تجاهه، ولا يقع نظره عليها، ولكنْ توضع حيث توضع دواوين الأعمال، حتى تُعْرَضَ عليه يوم القيامة، فتميز، فيثيبه على ما كان له منها، ويرد عليه ما لم يرد وجهه به منها.

فهٰـذا؛ قبوله لهٰذا العمل: إثابته عليه بمخلوق من مخلوقاته؛ من القصور، والأكل، والشرب، والحور العين.

وإثابة الأول: رضى العمل لنفسه، ورضاه عن معاملة عامله، وتقريبه منه، وإعلاء درجته ومنزلته، فهٰذا يعطيه بغير حساب.

فهٰذا لون، والأول لون.

والناس في الصلاة على مراتب خمسة:

**أحـدهـا**: مرتبـة الـظالم لنفسـه، المفرط، وهو الذي انتقص من وضوئها، ومواقيتها، وحدودها، وأركانها.

**الثـاني**: من يحـافظ على مواقيتهـا، وحدودها، وأركانها الظاهرة، ووضوئها، لكن قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة، فذهب مع الوساوس والأفكار.

**الثالث**: من حافظ على حدودها، وأركانها، وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار، فهو مشغول بمجاهدة عدوه؛ لئلا يسرق صلاته، فهو في صلاة وجهاد.

**الرابع**: مَن إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها، وأركانها، وحدودها، واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها؛ لئلا يضيع شيئاً منها، بل همُّه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي، وإكمالها، وإتمامها، قد استغرق قلبه شأن

الصلاة وعبودية ربه ـ تبارك وتعالى ـ فيها .

**الخامس**: مَن إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذٰلك، ولكن مع هٰذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه ـ عز وجل ـ ناظراً بقلبه إليه، مراقباً له، ممتلئاً من محبته وعظمته، كأنه يراه ويشاهده، وقد اضمحلَّت تلك الوساوس والخطرات، وارتفعت حجبها بينه وبين ربه، فهٰذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض، وهٰذا في صلاته مشغول بربه ـ عز وجل ـ قرير العين به .

فالقسم الأول معاقب، والثاني محاسَب، والثالث مكفَّر عنه، والرابع مثاب، والخامس مقرَّب من ربه؛ لأن له نصيباً ممَّن جُعِلَتْ قُرَّةُ عينه في الصلاة، فمن قرَّت عينه بصلاته في الدنيا؛ قرَّت عينه بقربه من ربه ـ عز وجل ـ في الآخرة، وقرَّت عينه أيضاً به في الدنيا، ومَن قرَّت عينه بالله؛ قرَّت به كل عين، ومَن لم تقرَّ عينه بالله ـ تعالى ـ تقطَّعت نفسه على الدنيا حسرات» . أ . هـ .

**ـ ذكر الموت في الصلاة:**

ولكي يفوِّتَ العبد الخاشعُ محاولاتِ الشيطان في إغوائه؛ فقد بيَّن رسول الله ﷺ ذٰلك بياناً كافياً، ووصف علاجاً شافياً، فقال:

«إذا قمتَ في صلاتِكَ؛ فصَلِّ صلاةَ مودِّعٍ ، ولا تتكلَّمْ بكلامٍ تعتذِرُ منه، وأجمعِ اليأس عما في أيدي الناسِ»(١) .

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٧١)، وأحمد (٥ / ٤١٢)، وأبو نُعيم في «حلية الأولياء» (١ / ٣٦٢)؛ من طريق عبدالله بن عثمان بن خثيم : حدثني عثمان بن جبير مولى أبي أيوب عن أبي أيوب؛ قال: =

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

= جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال يا رسول الله! علِّمني وأوجز. قال: (وذكره).

قال أبو نُعيم:

«غريب من حديث أبي أيوب لم يروه عنه إلا عبدالله بن عثمان بن خثيم. وروى ابن عمر نحوه عن رسول الله ﷺ».

وفي «الزوائد»:

«إسناده ضعيف، وعثمان بن جبير؛ قال الذهبي في «الطبقات»: مجهول. وذكره ابن حبان في «الثقات». وقال البخاري وأبو حاتم: روى عن أبيه عن جده عن أيوب».

قال المحقِّق السندي ـ رحمه الله ـ بعد كلام البوصيري.

لكن كون الحديث من أوجز الكلمات، وأجمعها للحكمة، يدل على قربه من الثبوت، فليتأمل.

قلت: إسناده ضعيف؛ لجهالة عثمان بن جبير.

لكن للحديث شواهد تدل بمجموعها على ثبوته؛ منها:

١ ـ حديث عبدالله بن عمر الذي أشار إليه أبو نُعيم، وهو عند الضياء المقدسي.

٢ ـ حديث سعد بن أبي وقاص عند الحاكم (٤ / ٣٢٦ ـ ٣٢٧): حدثنا أبو بكر محمد بن داود بن سليمان الزاهد: ثنا الحسن بن أحمد بن الليث: ثنا عمرو بن عثمان السواق: ثنا أبو عامر العقدي: ثنا محمد بن أبي حميد عن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه عن جده ـ رضي الله عنه ـ قال:

جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول اللهِ! أوصِني وأوجز.

فقال له النبي ﷺ: «عليك بالإياس مما في أيدي الناس، وإياك والطمع؛ فإنه الفقر الحاضر، وصلِّ صلاتك وأنت مودِّع، وإياك مما تعتذر منه».

قال الحاكم:

«هٰذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه».

ووافقه الذهبي.

قلت: ليس كذٰلك، فإن فيه محمد بن أبي حميد، وهو أبو إبراهيم الأنصاري الزُّرقي =

فالعبدُ المخبِتُ إذا شرع في صلاته؛ أحسن ركوعها وسجودها وخشوعها؛ كأنها آخر عهده بهٰذه الدنيا، ثم ينقلب إلى رحاب ربه، فهو محسن لصلاته، مشتاق للقاء خالقه، فتكون لحظة الرحيل بين عينيه، وهاذم اللذات مقبل عليه، فلا يلتفت بصره، ولا يشتغل قلبه، ولا يَذْهَل لبُّه.

قال رسول الله ﷺ:

«اذكر الموت في صلاتك؛ فإن الرجل إذا ذكر الموت في صلاته لحريٌّ أن يُحْسِنَ صلاتَه، وصلِّ صلاة رجلٍ لا يظنُّ أنه يصلي صلاةً غيرها، وإيَّاك وكلَّ أمرٍ يُعْتَذَرُ منه»(١).

**(٨ ـ ١ ـ ث) أمور لا تُنافي الخشوعَ في الصلاة:**

**ـ تحريك الأصبع في التشهد الأول والأخير:**

لقد ثبت عن سيد الخاشعين أنه في التشهد كان يضع يديه على فخذيه، ويجعل مرفقه على فخذه، وطرف يده على ركبته، ويقبض ثنتين من أصابعه، ويحلِّق حلقة، ثم يرفع أصبعه يدعو بها ويحركها؛ كما نقله الصحابي الجليل وائل بن حُجْر ـ رضي اللهُ عنه ـ في حديث يصف صلاته

---

= الملقب بحماد؛ ضعيف.

٣ ـ حديث أنس ـ رضي الله عنه، وهو الآتي.

(١) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (١ / ١ / ٥١ ـ مختصره) من طريق أبي الشيخ: حدثنا ابن أبي عاصم: حدثنا أبي: حدثنا شبيب بن بشر عن أنس مرفوعاً.

قلت: وإسناده حسن، رجاله ثقات؛ غير شبيب بن بشر؛ فإنه صدوق يخطىء.

وهو شاهد قوي لحديث أبي أيوب الآنف.

ﷺ[1].

ولفظ: «يحركها» فعل مضارع يفيد الاستمرارية.

قال العلامة أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي في «عون المعبود» (٣ / ٢٨١):

«وفيه تحريكها دائماً، إذ الدعاء بعد التشهد».

ورب قائل يقول: ألم تسمع بما أخرجه أبو داود في «سننه» (٩٨٩) من حديث عبدالله بن الزبير أن النبي ﷺ كان يشير بأصبعه إذا دعا ولا يحرِّكُها؟!

قلت: بلى، ولكنها رواية شاذَّة؛ كما بيَّنْتُها في رسالتي «مقامع الشيطان» (ص ٦٦ - ٦٨).

ومن قبلُ ضعَّفها ابن قيم الجوزية - رحمه الله - في «زاد المعاد» (١ / ٢٣٨):

«وأما حديث أبي داود عن عبدالله بن الزبير أن النبي ﷺ كان يشير بأصبعه إذا دعا ولا يحركها؛ فهٰذه زيادة، وفي صحتها نظر، وقد ذكر مسلمٌ[2] الحديث بطوله في «صحيحه» عنه، ولم يذكر هٰذه الزيادة، بل قال: (وذكره).

وأيضاً: فليس في حديث أبي داود عنه أن هٰذا كان في الصلاة.

---

(١) صحيح. أخرجه أبو داود (٩٥٧)، والنسائي (٢ / ١٢٦ - ١٢٧ و٣ / ٣٧)، وأحمد (٤ / ٣١٨)، وغيرهم.

وانظر رسالتي «مقامع الشيطان» (ص ٦٦).

(٢) برقم (٥٧٩).

وأيضـاً: لو كان في الصـلاة؛ لكان نافياً، وحديث وائل بن حجر مثبتٌ، وهو مقدَّم، وهو صحيح، ذكره أبو حاتم في[1] في (صحيحه)» أ. هـ.

وقـد ذهب البيهقي ـ رحمـه الله ـ في «سننه» (١ / ١٣٢) مذهباً للتوفيق بين حديث وائل بن حجر وحديث عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ فقال:

«. . . فيحتمـل أن يكـون المـراد بالتحريك الإشارة بها لا تكرير تحريكها، فيكون موافقاً لرواية ابن الزبير، والله ـ تعالى ـ أعلم».

قلت: لقد أبعد البيهقيُّ ـ رحمه الله ـ من وجوه:

**الأول**: أن لفظ: «لا يحركها» لم يثبت.

**الثاني**: أن هٰذا الاحتمال مخالف لظاهر الحديث.

**الثالث**: أن الإشارة أعمُّ من التحريك، إذ كل تحريك إشارة، وليس كل إشارة تحريك، فحينئذ يُحْمَل العام على الخاص، لا العكس.

وأغرب منه مَن قدَّم حديث عبدالله بن الزبير على حديث وائل بن حجر، وهو مردود من وجهين:

**الأول**: أن حديث عبدالله بن الزبير لو صح؛ فإن حديث وائل أصح.

**الآخـر**: أن حديث عبـدالله نافٍ، وحديث وائل مثبت، والمثبِتُ مقدَّم، وهو ما حققه ابنُ القيم آنفاً.

وأشنع من الفريقين فرقةٌ من متعصِّبة الحنفية أنكرت الإشارة مطلقاً!!

---

(١) هو ابن حبان، ذكره برقم (٤٨٥ ـ موارد).

فوقعوا على أم رأسهم، حيث خالفوا الحق من وجهين:

**الأول**: خالفوا الأحاديث الصحيحة الصريحة في الإشارة.

**الآخر**: خالفوا القول المقرَّر في المذهب الحنفي نفسه، وهو ما قرره محققو المذهب الذين عليهم مدار الفتيا.

وبهٰذا يتبيَّن أن تحريك الإصبع في التشهد لا ينافي الخشوع، بل هو من الخشوع، ولهٰذا عدَّه رسول الله ﷺ أشدَّ من المطارق على رأس كل شيطان مارق؛ كما بيَّنْتُه في رسالتي «مقامع الشيطان» (ص ٦٥).

**(٨ ـ ٢) الدعاء الخفي**:

ومن أنواع العبادات التي يظهر فيها الخشوع لله ـ عزَّ وجلَّ ـ الدعاء.

قال اللهُ ـ تعالى ـ يصف زكريا وآله ـ عليهم الصلاة والسلام:

**﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾** [الأنبياء: ٩٠].

إن قلوبهم وثيقة الصلة بالله، دائمة التطلُّع إلى رضوانه، تخشى غضبه، فهي تدعوه في إنابة وخشوع، وتَذَلُّل وخضوع؛ لأنها تقدر ربها حقَّ قدره، فتناديه نداء خفيّاً.

**﴿كهيعص . ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا . إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً﴾** [مريم: ١ ـ ٣].

إنه دعاء زكريا لربه في خفيةٍ وتضرُّعٍ . . . إنه يناجي ربه بعيداً عن عيون الناس، بعيداً عن أسماعهم . . . في عزلة يُخْلِصُ فيها لربه، ويكشِف له عمَّا يُثْقِل كاهِله، ويكْرِبُ صدره، ويناديه في قرب واتصال . . . بلا واسطة، حتى ولا حرف النداء: ﴿رَبِّ﴾.

وإن الله لَيَسْمَعُ ويرى من غير دعاء ولا نداء، ولكن المكروب يستريح إلى البث، ويحتاج إلى الشكوى إلى الله.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وحُزْنِي إلى اللهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

واللهُ الرؤوف الرحيم يعلم ذلك من فطرة البشر، فيستحب لهم أن يدعوه، وأن يبثوه ما تضيق به صدورُهم؛ ليستجيب لهم:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وبذلك تستريح أعصابهم من العبء المرهق، وتطمئن قلوبهم إلى أنهم توجَّهوا إلى مَن هو أقوى وأقدر، فلن يرجعوا صفراً، فهم في جناب الذي لا يضام مَن لجأ له، وحمى الذي لا يَذِلُّ مَن ركَنَ إليه، ولا يخيب مَن توكل عليه.

ولذلك أمر الله عباده أن يدعوه تضرُّعاً وخفية، وخوفاً وطمعاً، كما فعل زكريا وذريَّته المخبتة الخاشعة:

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعَاً وخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ . ولاَ تُفْسِدُوا في الأَرْضِ بعْدَ إِصْلاحِها وادْعُوهُ خَوْفاً وطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ المُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥ ـ ٥٦].

إنه التوجيه إلى الدعاء والإنابة؛ تضرُّعاً وتذلُّلاً وخفيةً، لا مكاءً وتصديةً، فالتضرُّع الخفي أليق بجلال الله، وأنسب بقرب الصلة بين العبد ومولاه، وفي إخفاء الدعاء فوائد طيبة، ذكر فيضاً منها شيخُ الإسلام وشامة الشام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في «مجموع الفتاوى» (١٥ / ١٥ ـ ٢٢):

«**أحدها**: أنه أعظم إيماناً؛ لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع الدعاء

الخفي .

**وثانيها**: أنه أعظم في الأدب والتعظيم؛ لأن الملوك لا ترفع الأصوات عندهم، ومَن رفع صوته لديهم مَقَتوه، ولله المثل الأعلى، فإذا كان يسمعُ الدعاءَ الخفيَّ؛ فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به.

**وثالثها**: أنه أبلغ في التضرُّع والخشوع، الذي هو روح الدعاء ولبُّه ومقصوده، فإن الخاشع الذَّليل إنما يسأل مسألة مسكين ذليل، قد انكسر قلبه، وذلَّت جوارحه، وخشع صوته، حتى إنه لَيكاد تبلغ ذلته وسكينته وضراعته إلى أن ينكسر لسانه فلا يطاوعه بالنطق، وقلبُه يسأل طالباً مبتهلاً، ولسانه لشدة ذلته ساكتاً، وهٰذه الحال لا تأتي مع رفع الصوت بالدعاء أصلاً.

**ورابعها**: أن أبلغ في الإخلاص.

**وخامسها**: أنه أبلغ في جمعية القلب على الذلَّة في الدعاء، فإن رفع الصوت يفرِّقه، فكلما خفض صوته؛ كان أبلغ في تجريد همته وقصده للمدعوِّ ـ سبحانه.

**وسادسها** ـ وهو من النكت البديعة جداً ـ أنه دالٌّ على قرب صاحبه للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد، ولهٰذا أثنى الله على عبده زكريا بقوله ـ عزَّ وجلَّ:

﴿**إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً**﴾ [مريم: ٣].

فلما استحضر القلبُ قربَ الله ـ عز وجلَّ ـ وأنه أقرب إليه من كل قريب؛ أخفى دعاءَه ما أمكنه.

وقد أشار النبي ﷺ إلى المعنى بعيْنِه بقوله في الحديث الصحيح

ـ لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه في السفر ـ فقال:

«أرْبِعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعونَ أصمَّ ولا غائِباً، إنَّكم تدعونَ سَميعاً قَرِيباً أقْرَبَ إلى أحدِكم من عُنُقِ راحلته»[1].

وقد قال ـ تعالى:

﴿وإذا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وهٰـذا القرب من الداعي هو قربٌ خاصٌّ، ليس قرباً عامّاً من كل أحد، فهو قريبٌ من داعيهِ، وقريبٌ من عابديه، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد[2].

وقوله ـ تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] فيه الإرشاد والإعلام بهٰذا القرب.

**وسابعها**: أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يملُّ، والجوارح لا تتعب؛ بخلاف ما إذا رفع صوته؛ فإنه قد يملُّ اللسان، وتضعف قواه.

وهٰذا نظير مَن يقرأ ويكرر، فإذا رفع صوته؛ فإنه لا يطول له؛ بخلاف مَن خفض صوته[3].

---

(١) أخرجه البخاري (١١ / ٥٠٠ ـ الفتح)، ومسلم (١٧ / ٢٥ ـ ٢٦ ـ نووي).

(٢) مضى الحديث في هٰذا المعنى مخرجاً (ص٣٧).

(٣) هٰذه فائدة طيبة ونكتة بديعة في كيفية استغلال الوقت في المطالعة والدرس، وهي تلقي ضوءها على بعض الأخبار الثرَّة عن عجائب علماء السلف في جرد المطوَّلات حيث لا يملُّون ويكون ذٰلك منهم في أزمان قياسية، فتدبر.

**وثـامنها**: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمُشَوِّشات؛ فإن الداعي إذا أخفى دعاه؛ لم يدر به أحد، فلا يحصل على هٰذا تشويش ولا غيره، وإذا جهر به فرطت له الأرواح البشرية ولا بد، ومانعته، وعارضته، ولو لم يكن إلا أن تعلقها به يفزع عليه همته، فيضعف أثر الدعاء، ومَن له تجربة؛ يعرف هٰذا[1]، فإذا أسرَّ الدعاء؛ أمن هٰذه المفسدة.

**وتاسعها**: أن أعظم النعمة الإقبال والتعبُّد، ولكل نعمة حاسد على قدرها؛ دقَّت أو جلَّت، ولا نعمة أعظم من هٰذه النعمة، فإن أنْفُس الحاسدين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد، وقد قال يعقوب ليوسف ـ عليهما السلام:

﴿**لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً**. . .﴾ الآية [يوسف: ٥].

وكم من صاحب قلبٍ وجمعية وحال مع الله ـ تعالى ـ قد تحدَّث بها، وأخبر بها، فسلبه إياها الأغيارُ، ولهٰذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله ـ تعالى، ولا يُطْلِع عليه أحد.

والقوم أعظم شيئاً كِتماناً لأحوالهم مع اللهِ ـ عز وجل ـ وما وهب الله من محبته والأنس به وجمعية القلب، ولا سيما فعله للمهتدي السالك، فإذا تمكَّن أحدهم وقوي، وثبَّت أصول تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه بحيث لا يُخشى عليه من العواصف؛ فإنه إذا أبدى حاله مع الله ـ تعالى؛ ليقتدى به ويؤتَمَّ به؛ لم يبال.

(١) وليس مراده أن الدين مرتع للتجارب، بل هو شرح للواقع، حيث يجد العبد المتبع صدق الشرع، فيتذوق حلاوة الإيمان.

وهٰذا باب عظيم النفع، إنما يعرفه أهله[1].

وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء والمحبة والإقبال على الله ـ تعالى ؛ فهو من عظيم الكنوز التي هي أحق بالإخفاء على أعين الحاسدين.

**وهٰذه فائدة شريفة نافعة.**

**وعاشرها**: أن الدعاء هو ذكر للمدعوِّ ـ سبحانه وتعالى، متضمِّن للطلب والثناء عليه بأوصافه وأسمائه، فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمِّيَ دعاء لتضمنه للطلب؛ كما قال النبي ﷺ:

«أفضل الدعاء الحمد لله»[2].

فسمى الحمدَ لله دعاءً، وهو ثناء محض؛ لأن الحمد متضمِّن الحبَّ والثَّناء، والحبُّ أعلى أنواع الطلب، فالحامد طالب للمحبوب، فهو أحق أن يسمَّى داعياً من السائل الطالب، فنفس الحمد والثناء متضمِّن لأعظم الطلب، فهو دعاء حقيقة، بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه.

**والمقصود** أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر، ويدخل فيه، وقد قال ـ تعالى:

---

(١) هٰذا من باب إخفاء العمل الذي نهجه الصالحون؛ خشية الوقوع في هاوية الرياء، وقد بسطته في رسالتي الموسومة بـ «الرياء؛ ذمه وأثره السَّيِّىء في الأمة»، نشر دار ابن الجوزي، الدمام.

(٢) صحيح. أخرجه الترمذي (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠)، وغيرهم؛ من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه.

﴿واذْكُرْ رَبَّكَ فِيْ نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وخِيْفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

فأمر ـ تعالى ـ نبيَّه ﷺ أن يذكره في نفسه.

قال مجاهد وابن جريج:

«أُمروا أن يذكروه في الصدور بالتضرُّع والاستكانة؛ دون رفع الصوت والصياح».

وتأمَّل كيف قال في آية الذكر: ﴿وَٱذْكُرْ رَبَّكَ...﴾ الآية، وفي آية الدعاء: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وخُفْيَةً﴾.

فذكر التضرع فيهما معاً، وهو التذلُّل والتمسكن والانكسار، وهو روح الذكر والدعاء.

وخص الدعاء بالخفية؛ لما ذكرنا من الحكم وغيرها.

وخص الذِّكر بالخيفة؛ لحاجة الذاكر إلى الخوف؛ فإن الذكر يستلزم المحبَّة ويثمِّرها، ولا بد لمن أكثر من ذكر اللهِ أن يثمر له ذلك محبته، والمحبة ما لم تقترن بالخوف؛ فإنها لا تنفع صاحبها، بل تضرُّه؛ لأنها توجب التواني والانبساط، وربما آلت بكثير من الجهَّال المغرورين إلى أن استغنوا بها عن الواجبات، وقالوا: المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب، وإقباله على الله، ومحبته له، فإذا حصل المقصود؛ فالاشتغال بالوسيلة باطل.

ولقد حدَّثني رجل أنه أنكر على بعض هؤلاء خلوة له ترك فيها الجمعة، فقال له الشيخ: أليس الفقهاء يقولون: إذا خاف على شيء من ماله؛ فإن الجمعة تسقط؟ فقال له: بلى. فقال له: فقلب المريد أعز عليه من عشرة دراهم ـ أو كما قال ـ وهو إذا خرج ضاع قلبه، فحِفْظُه لقلبه عذرٌ

مسقِطٌ للجمعة في حقه!! فقال له: هٰذا غرور بك، الواجب الخروج إلى أمر الله ـ عزَّ وجلَّ.

فتأمَّل هٰذا الغرور العظيم؛ كيف أدَّى إلى الانسلاخ عن الإسلام جملة؟!

فإن مَن سلك هٰذا المسلك؛ انسلخ عن الإسلام العام؛ كانسلاخ الحية من قشرها، وهو يظن أنه من خاصة الخاصة.

وسبب هٰذا عدم اقتران الخوف من الله بحبِّه وإرادته.

ولهٰذا قال بعض السلف: مَن عبد الله بالحب وحده؛ فهو زنديق، ومَن عبده بالخوف وحده؛ فهو حروري، ومَن عبده بالرجاء وحده؛ فهو مرجىء، ومَن عبده بالحب والخوف والرجاء؛ فهو مؤمن.

والمقصود أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع في هٰذه المعاطب، فإذا اقترن بالخوف؛ جمعه على الطريق، وردَّه إليها كُلَّما كَلَّها شيءٌ؛ كالخائف الذي معه سوط يَضْرِب به مطيَّتَه؛ لئلا تخرج عن الطريق.

والرجاء حادٍ يحدوها؛ يطلب لها السير، والحب قائدها وزمامها الذي يشوقها، فإذا لم يكن للمطيَّة سوط ولا عصى يردُّها إذا حادت عن الطريق؛ خرجت عن الطريق، وضلت عنها.

فما حُفِظت حدود الله ومحارمه ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبَّته، فمتى خلا القلب من هٰذه الثلاث؛ فسد فساداً لا يُرجى صلاحه أبداً، ومتى ضعف فيه شيء من هٰذه؛ ضعف إيمانه بحسبه.

فتأمل أسرار القرآن وحكمته في اقتران الخيفة بالذكر، والخفية بالدعاء؛ مع دلالته على اقتران الخيفة بالدعاء والخفية بالذكر أيضاً.

وذَكَرَ الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء؛ لأن الدعاء مبنيٌّ عليه، فإن الـداعي ما لم يطمع في سؤاله ومطلوبه؛ لم تتحرك نفسه لطلبه؛ إذ طلبُ ما لا طَمَعَ له فيه ممتنعٌ.

وذَكَرَ الخوف في آية الذكر؛ لشدة حاجة الخائف إليه.

فذَكَرَ في كل آية ما هو اللائق بها من الخوف والطمع، فتبارك من أُنزل كلامه شفاء لما في الصدور». أ. هـ.

○○○○○

# ( ٩ )
# دَرَجاتُ الخُشوعِ

**(٩ ـ ١) وَجَل القلب:**

إنها الارتعاشة التي تنتاب القلب الموصول بالله، فتغشاه جلالته، وتنتفض فيه مخافته، وتتمثَّل عظمه الله ومهابته، إلى جانب تقصيره وذنبه، وقد صوَّر العليم هٰذه الحالة الوجدانية التي تعتري القلب:

﴿**إنَّما المُؤمِنُونَ الَّذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ [الأنفال: ٢].

ونظيرها قوله ـ تعالى:

﴿**وبَشِّرِ المُخْبِتِينَ . الَّذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ [الحج: ٣٤ ـ ٣٥].

**(٩ ـ ٢) قشعريرة الجلد:**

ثم تسري هٰذه الشحنة الإيمانيّة في الجسد المؤمن، فيقشعرُّ جلده.

قال ـ تعالى:

﴿**اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**﴾ [الزمر: ٢٣].

**(٩ ـ ٣) البكاء:**

ثم تفيض أعينهم بالدمع؛ تعبيراً عن التأثُّر العميق، وهٰذا البكاء يؤدي ما لا يؤدِّيه القول. قال مولانا الحق:

﴿**وإذا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إلى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ**﴾ [المائدة: ٨٣].

وقال ـ عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَخِرُّونَ للأذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيْدُهُمْ خُشُوعاً﴾ [الإسراء: ١٠٩].

**(٩ ـ ٤) لين القلب والجلد معاً:**

إن هٰذا الدمع الغزير ليس تفريغاً لهٰذه الشحنة الإيمانيَّة، وإنما هو ماء يُسْكَب فوقها، فيتذوق الخاشع برد اليقين، ويحس بثلج الإيمان.

قال المولى الحق ـ جلَّ شأنه:

﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابَاً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُودُهُمْ وقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللهِ ذٰلكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

**(٩ ـ ٥) السكينة:**

وهي الوقار والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدَّة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذٰلك لما يرد عليه، ويوجب له زيادة الإيمان، وقوة اليقين والثبات.

ولهٰذا أخبر الله ـ سبحانه ـ عن إنزالها على رسوله ﷺ في مواضع القلق والاضطراب:

كيوم الهجرة؛ إذ هو وصاحبه في الغار، والعدو فوق رؤوسهم، حتى إن أحدهم لو نظر تحت قدميه لرآهما:

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنا فأَنْزَلَ اللهُ سَكِيْنَتَهُ عَليهِ وأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها﴾ [التوبة: ٤٠].

وكيوم الحديبية حين اضطربت قلوبهم من تحكُّم الكفار عليهم، ودخولهم تحت شروطهم التي لا تحملها النفوس، وحسبك بضعف عمر

ـ رضي الله عنه ـ عن حملها ـ وهو عمر ـ حتى ثبَّتَهُ اللهُ بالصدِّيقِ ـ رضي الله عنه:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤمنينَ إذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فأَنْزَلَ السَّكِيْنَةَ عَلَيْهِمْ وأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾ [الفتح: ١٨].

وكيوم حُنَيْنٍ حين وَلَّوا مدبرين من شدة بأس الكفار، لا يلوي أحد منهم على أحد:

﴿لَقَدْ نَصَركُمُ اللهُ في مَواطِنَ كَثِيْرَةٍ ويَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنْـزَلَ اللهُ سَكِيْنَتَـهُ عَلى رَسُولِهِ وعَلَى المُؤمِنِينَ وأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وعَذَّبَ الَّذينَ كَفَرُوا وذٰلكَ جَزَاءُ الكَافِرينَ﴾ [التوبة: ٢٥ ـ ٢٦].

والسكينة إذا نزلت على القلب؛ سكن بها، وخشعت إليها الجوارح، واكتسبت الوقار، وأنطقت اللسان بالصواب والحكمة، وحالت بينه وبين الفحش والتفحُّش، واللغو والهجر، وكل باطل.

ولذٰلك؛ فهي تجمع قوة وروحاً، يسكن إليه الخائف، ويتسلى به الحزين والضجر، فإذا باشرت قلبه؛ سَكَّنَتْ خوفه، وسلت حزنه، فإنها لا حزن معها، فهي سلوة المحزون، ومذهبة الهموم والغموم، وكذٰلك أذهبت وضم ضجره، وبعثت نشوة العزم.

**(٩ ـ ٦) الإخبات:**

وهو أول مقام يتخلص فيه العبد من التردُّد الذي هو ضرب من الغفلة والإعراض، ولذٰلك فهو أول منازل الطمأنينة، فإذا استقرَّ المقام به؛ ارتفعت همته، وعلت نفسه، فباشر حلاوةَ الإيمان وبردَ اليقين قلبُه،

وانقشعت حجبُ نفسه:

«فالنفس جبل عظيم شاقٌّ في طريق السير إلى الله، وكل سائرٍ لا طريق له إلا على ذٰلك الجبل، فلا بد أن ينتهي إليه، ومنهم مَن هو شاقٌّ عليه، ومنهم مَن هو سهلٌ عليه، وإنه ليسيرٌ على مَن يسَّره الله عليه.

وفي ذٰلك الجبل أودية وشعوب، وعقبات ووهود، وشوك وعوسج، وعُلَّيق وشَبرق، ولصوص يقتطعون الطريق على السائرين، ولا سيما أهل الليل المُدْلِجين، فإذا لم يكن معهم عُدد الإيمان، ومصابيح اليقين تتَّقِد بزيت الإخبات؛ وإلا تعلَّقت بهم الموانع، وتشبثت بهم تلك القواطع، وحالت بينهم وبين السير. فإن أكثر السائرين فيه رجعوا على أعقابهم لما عجزوا عن قطعه، واقتحام عقباته.

والشيطان على قُلَّة ذٰلك الجبل، يحذِّر الناس من صعوده وارتفاعه، ويخوِّفهم منه، فيتفق مشقةُ الصعود وقعودُ ذٰلك المخوِّف على قُلَّته وضعفُ عزيمة السائر ونيته، فيتولد من ذٰلك الانقطاع والرجوع، والمعصوم مَن عصمه الله.

وكلما رقى السائر في ذٰلك؛ اشتدَّ به صياح القاطع، وتحذيره وتخويفه، فإذا قطعه وبلغ قُلَّته؛ انقلبت تلك المخاوف كلهنَّ أماناً، وحينئذ يسهلُ السير، وتزول عنه عوارض الطريق، ومشقة عقباتها، ويرى طريقاً واسعاً آمناً يُفْضي به إلى المنازل والمناهل، وعليه الأعلام، وفيه الإقامات، قد أعدت لركب الرحمٰن.

فبين العبد وبين السعادة والفلاح: قوة عزيمة، وصبر ساعة، وشجاعة نفس، وثبات قلب، والفضل بيد الله يؤتيه مَن يشاء، والله ذو

الفضل العظيم»[1]» أ. هـ.

**(٩ ـ ٧) الطُّمأنينة:**

وهي نهاية الإخبات، ولذلك؛ فهي سكون القلب والنفس مع قوة الأمن الصحيح الذي لا يكون أمن غرور؛ لأن الغرور قد ينزل القلب والنفس، لكن هيهات أن تطمئن به النفس أو يطمئن به القلب؛ لأنه سرعان ما يتركه، ولكن الطمأنينة لا تفارق صاحبها؛ لأنه في مقام الرجوع إلى الله، حيث لا يبقى معه شيء من مخاوف الظنون والأوهام، وكأنه ينظر إليه نظر العين، فيأمن به اضطراب قلبه وقلق نفسه.

قال ـ تعالى:

**﴿الَّذينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ﴾** [الرعد: ٢٨].

وقال ـ جلَّ شأنه:

**﴿يَا أَيَّتُها النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً . فادْخُلي في عِبادي . وادْخُلي جَنَّتي﴾** [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

وفي هٰذا دليل أن الطمأنينة طريق الرجوع إلى الله، فإن النفس لا ترجع إلى ربها؛ إلا إذا كانت مطمئنة، فهناك ترجع إليه، وتدخل في عباده الآمنين، الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وتستقرُّ في دار رحمته.

وهٰكذا يتبيَّن لك أيها العبد الخاشع الراجع إلى ربه أن الخشوع سبع درجات طباقاً، من ارتقى فيها بسلم الإخلاص، وتوكَّأ على عصا الاتباع؛ ورد معين الفلاح.

(١) «مدارج السالكين»: ابن قيم الجوزية، (٢ / ٧ ـ ٨).

# (١٠)
# أُمورٌ لا تُعَدُّ مِن الخشوع

## (١٠ ـ ١) الزَّعيق والصِّياح :

أيها العبد المخْبِتُ في محراب الخشوع! لقد مرت بك أحوال العلماء العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، حيث يبكون ولا يُصْعَقون، ويسألون ولا يصيحون، ويتحازنون ولا يتماوتون.

«لا كما يفعله جُهَّال العوامِّ والمبتدعة الطغام[1] من الزَّعيق والزَّئير، ومن النُّهاق الذي يشبهُ نُهاق الحميرِ.

فيقال لمن تعاطى ذٰلك وزعم أن ذٰلك وَجْدٌ وخشوعٌ: لم تبلغ أن تساوي حال الرسول ولا حال أصحابه في المعرفة بالله، والخوف منه، والتعظيم لجلاله، ومع ذٰلك؛ فكانت حالهم عند المواعظ والفهم عن الله: البكاءَ خوفاً من الله.

ولذٰلك وَصَفَ الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه، فقال:

**﴿وإذا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إلى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُولونَ رَبَّنا آمَنَّا فاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾**.

فهٰذا وصف حالهم، وحكاية مقالهم، ومَن لم يكن كذٰلك؛ فليس على هديهم، ولا على طريقتهم، فمَن كان مستنّاً؛ فليستنَّ، ومَن تعاطى أحوال المجانين والجنون؛ فهو من أخسِّهم حالاً، والجنون فنون.

---

(١) أراذل الناس وأوغادهم.

روى مسلمٌ عن أنس بن مالـك أن النـاس سألـوا النبيَّ ﷺ حتى أحْفَوْه في المسألة، فخرج ذات يوم، فصعد المنبر، فقال:

«سلوني، لا تسألوني عن شيءٍ؛ إلا بيَّنْتُهُ لكم ما دمتُ في مقامي هٰذا».

فلما سمع ذٰلك القوم أرمّوا[1] ورهبوا أن يكون بين يدي أمر قد حضر.

قال أنس: فجعلتُ ألتفتُ يميناً وشمالاً، فإذا كل إنسان لافٌّ رأسَه في ثوبه يبكي... (وذكر الحديث).

وروى الترمذيُّ[2] وصحَّحه[3] عن العِرْباض بن سارية؛ قال:

وعـظَنَا رسول الله ﷺ موعظة بليغة، ذَرَفَتْ منها العيون، ووجِلَت منها القلوب... (الحديث).

ولم يقل: زعَقْنا، ولا رَقَصْنا، ولا زفَنَّا[4]، ولا قمنا»[5] أ. هـ.

## (١٠ ـ ٢) الرَّقص والتَّصفيق:

«وأما الرقص والتصفيق؛ فخفَّة، ورُعونة مشبهة لرعونة الإناث، لا يفعلها إلا راعن، أو متصنع كذاب.

كيف يتأتَّى الرقص المتَّزن بأوزان الغناء ممَّن طاش لبه، وذهب قلبه؟!

---

(١) سكتوا.

(٢) برقم (٢٦٧٦).

(٣) وهو كما قال، وقد بيَّنْتُ ذٰلك في رسالتي «درء الارتياب عن حديث ما أنا عليه والأصحاب»، نشر دار الراية ـ الرياض.

(٤) شبيه بالرقص، وأصله الدفع واللعب.

(٥) «الجامع لأحكام القرآن»: القرطبي، (٧ / ٣٦٥).

وقد قال ـ عليه السلام :

«خيرُ القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونَهم»[1].

ولم يكن أحد من هٰؤلاء الذين يُقْتَدى بهم يفعل شيئاً من ذٰلك ، وإنما استحوذ الشيطان على قومٍ يظنُّون أن طربهم عند السماع إنما هو متعلِّق بالله ـ عزَّ وجلَّ .

ولقد مانوا[2] فيما قالوا ، وكذَّبوا فيما ادَّعَوا ؛ من جهة أنهم عند سماع المطرِبات ؛ وجدوا لذتين اثنتين :

**إحداهما** : لذة المعارف والأحوال المتعلقة بذي الجلال .

**والثانية** : لذة الأصوات والنغمات والكلمات الموزونات الموجبات للذَّات النفس التي ليست من الدين ، ولا متعلقة بأمور الدين .

فلما عظُمَت عندهم اللَّذَّتان ؛ غلطوا ، فظنوا أن مجموع اللَّذة إنما حصل بالمعارف والأحوال ، وليست كذٰلك ، بل الأغلب عليهم حصول لذَّات النفوس التي ليست من الدين في شيء .

وقد حرَّم بعض العلماء التصفيق ؛ لقوله ـ عليه السلام :

«إنما التَّصفيق للنساء»[3].

ولعن ـ عليه السلام ـ المتشبِّهات من النساء بالرجال ، والمتشبِّهين

---

(١) حديث متواتر؛ كما بينته في غيرما موضع ، واللفظ الذي ذكره الشيخ العز بن عبدالسلام غير محفوظ ، والصحيح :

«خير الناس قرني . . . » الحديث .

(٢) كذبوا .

(٣) أخرجه مسلم .

من الرجال بالنساء[1].

ومَن هاب الإله، وأدرك شيئاً مِن تعظيمه؛ لم يُتَصَور منه رقص، ولا تصفيق، ولا يصدر التصفيق إلا من غبيٍّ جاهل، ولا يصدر من عاقل فاضل.

ويدل على جهالة فاعلهما أن الشريعة لم ترد بهما في كتاب ولا سنة، ولم يفعل ذٰلك أحد من الأنبياء، ولا مُعْتَبَرٌ من أتباع الأنبياء، وإنما يفعل ذٰلك الجهلة السفهاء الذين التبست عليهم الحقائق بالأهواء، وقد قال ـ تعالى:

﴿وأَنْزَلْنا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شيءٍ﴾[2].

وقد مضى السلف وأفاضل الخلف ولم يلابسوا شيئاً من ذٰلك، ومن فعل ذٰلك أو اعتقد أنه غرض من أغراض نفسه، وليس بقربة إلى ربه؛ فإن كان مما يُقتدى به، ويعتقد أنه ما فعل ذٰلك إلا بكونه قربة؛ فبئس ما صنع؛ لإيهامه أن هٰذا من الطاعات، وإنما هو من أقبح الرعونات»[3].

## (١٠ ـ ٣) ضرب الخدود وشق الجيوب والتباكي:

«هٰذا هو الخشوع المحمود؛ لأن الخوف إذا سكن القلب؛ أوجب خشوع الظاهر، فلا يملك صاحبه دفعه، فتراه مطرقاً متأدِّباً متذلِّلاً.

وقد كان السلف يجتهدون ستر ما يظهر من ذٰلك.

وما المذموم؛ فتكلفه، والتباكي، وطأطأة الرأس؛ كما يفعل

(١) انظر: «صحيح الجامع الصغير» (٥١٠٠).

(٢) النحل: ٨٩.

(٣) «قواعد الأحكام»: العز بن عبدالسلام، (٢ / ١٨٦ ـ ١٨٧).

الجهال؛ ليُرَوا بعين البرِّ والإجلال، وذٰلك خدع من الشيطان، وتسويل من نفس الإنسان».

وقال العز بن عبد السلام:

«وأما الصياح والتَّغاشي والتباكي تصنُّعاً ورياءً؛ فإن كان عن حال لا تقتضيه؛ فقد أثم من وجهين:

**أحدهما**: إيهامه الحال التامَّة الموجبة لذٰلك.

**والثاني**: تصنُّعه به ورياؤه.

وإن كان عن حال تقتضيه؛ أَثِمَ إِثْمَ ريائه لا غير.

وكذٰلك نتف الشعور، وضرب الصدور، وتمزيق الثياب: محرَّمٌ؛ لما فيه من إضاعة المال.

وأيُّ ثمرة لضرب الصدور، ونتف الشعور، وشق الثياب؛ إلا رعونات في النفوس»[1].

**كلام نفيس للشاطبي ـ رحمه الله ـ في تحقيق هٰذه المسألة:**

«والذي يظهر في التواجد ما كان يبدو على جملة من أصحاب رسول الله ﷺ، وهو البكاء واقشعرار الجلد التابع للخوف الآخذ بمجامع القلوب، وبذٰلك وصف الله عباده في كلامه، حيث قال:

**﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيْثِ كِتَاباً مُتَشابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللهِ﴾**.

وقالَ ـ تَعالى:

---

(١) «قواعد الأحكام»: العز بن عبدالسلام، (٢ / ١٨٧).

﴿وإذا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إلى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيْضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ﴾.

وقالَ:

﴿إنَّمَا المُؤمِنُونَ الَّذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وإذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُمْ إيْماناً ـ إلى قوله ـ أُولٰئكَ هُمُ المُؤْمِنُونَ حَقّاً﴾.

بخلاف هٰؤلاء القوم الذين لم يشمُّوا من أوصاف الفضلاءِ رائحة، فأخذوا بالتشبه بهم، فأبرز لهم هواهم التشبُّهَ بالخوارج.

ويا ليتهم وقفوا عند هٰذا الحد المذموم!! ولكن زادوا على ذٰلك الرقص، والزمر، والدوران، والضرب على الصدور، وبعضهم يضرب على رأسه، وما أشبه ذٰلك من العمل المضحك للحمقى؛ لكونه من أعمال الصبيان والمجانين، المبكي للعقلاء؛ رحمة لهم، إذ لم يُتَّخَذْ مثل هٰذا طريقاً إلى الله وتشبهاً بالصالحين.

وقد صحَّ من حديث العرباض بن سارية ـ رضي الله عنه ـ قال:

وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب... (الحديث).

فقال الإمام الآجُرِّي العالم السُّني أبو بكر ـ رضي الله عنه:

«ميزوا هٰذا الكلام؛ فإنه لم يقل: صرخنا من موعظة، ولا طرقنا على رؤوسنا، ولا ضربنا على صدورنا، ولا زَفَنَّا، ولا رقصنا؛ كما يفعل كثير من الجهال يصرخون عند المواعظ، ويزعقون، ويتناشون.

قال:

وهٰذا كله من الشيطان؛ يلعب بهم، وهٰذا كله بدعة وضلالة.

ويقال لمن فعل هذا: اعلم أن النبي ﷺ أصدق الناس موعظة، وأنصح الناس لأمته، وأرق الناس قلباً، وخير الناس مَن جاء بعده ـ لا يشك في ذلك عاقل ـ ما صرخوا عند موعظته، ولا زعقوا، ولا رقصوا، ولا زفنوا، ولو كان هذا صحيحاً؛ لكانوا أحق الناس به أن يفعلوه بين يدي رسول الله ﷺ، ولكنه بدعة، وباطل، ومنكر، فاعلم ذلك». انتهى كلامه.

وهو واضح فيما نحن فيه.

ولا بد من النظر في الأمر كله الموجب للتأثر الظاهر في السلف الأولين مع هؤلاء المدَّعين:

فوجدنا الأوَّلين يظهر عليهم ذلك الأثر بسبب ذكر الله، أو بسماع آية من كتاب الله، وبسبب رؤية اعتبارية؛ كما في قصة الربيع عند رؤيته للحدَّاد والأتون ـ وهو موقد النار، ولسبب قراءة في صلاة أو غيرها.

ولم نجد أحداً منهم ـ فيما نقل العلماءُ ـ يستعملون الترنُّم بالأشعار؛ لترق نفوسهم، فتتأثر ظواهرهم.

وطائفة الفقراء على الضد منهم، فإنهم يستعملون القرآن والحديث والوعظ والتذكير، فلا تتأثر ظواهرهم، فإذا قام المزمِّر؛ تسابقوا إلى حركاتهم المعروفة لهم.

فبِالحَريِّ أن لا يتأثروا على تلك الوجوه المكروهة المبتدعة؛ لأن الحق لا ينتج إلا حقّاً؛ كما أن الباطل لا ينتج إلا باطلاً.

وعلى هذا التقرير ينبني النظر في حقيقة الرقة المذكورة، وهي المحركة للظاهر، وذلك أن الرقة ضد الغلظ، فنقول: هذا رقيق ليس بغليظ، ومكان رقيق إذا كان لين التراب، ومثله الغليظ، فإذا وصف بذلك؛

فهو راجع إلى لينه وتأثره ضد القسوة، ويشعر بذلك قوله ـ تعالى :

﴿ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُودُهُمْ وقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللهِ﴾.

لأن القلب الرقيق؛ إذا أوردت عليه الموعظة؛ خضع لها ولان وانقاد.

ولذلك قال ـ تعالى :

﴿إنَّما المُؤمِنُونَ الَّذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

فإن الوجل تأثر ولين يحصل في القلب بسبب الموعظة، فترى الجلد من أجل ذلك يقشعر، والعين تدمع. واللينُ إذا حلَّ بالقلب ـ وهو باطن الإنسان ـ حلَّ بالجلد بشهادة الله ـ وهو ظاهر الإنسان ـ فقد حل الانفعال بمجموع الإنسان، وذلك يقتضي السكون لا الحركة، والانزعاج والسكون لا الصياح، وهي حالة السلف الأولين ـ كما تقدم.

فإذا رأيت أحداً سمع موعظة ـ أيَّ موعظة كانت ـ فيظهر عليه من الأثر ما ظهر على السلف الصالح؛ علمت أنها رقة هي أول الوجد، وأنها صحيحة لا اعتراض فيها.

وإذا رأيت أحداً سمع موعظة قرآنية أو سُنِّيَّة أو حكمية، ولم يظهر عليه من تلك الآثار شيء، حتى يسمع شعراً مرقَّماً، أو غناء مطرباً، فتأثَّر؛ فإنه لا يظهر عليه في الغالب من تلك الآثار شيء، وإنما يظهر عليه انزعاج؛ بقيام، أو دوران، أو شطح، أو صياح، أو ما يناسب ذلك.

وسببه أن الذي حلَّ بباطنه ليس بالرقة المذكورة أولاً، بل هو الطرب الذي يناسب الغناء؛ لأن الرقة ضد القسوة ـ كما تقدم ـ والطرب ضد الخشوع ـ كما يقوله الصوفية.

والطرب مناسب للحركة؛ لأنه ثوران الطباع، ولذٰلك اشترك فيه مع الإنسان الحيوان؛ كالإبل، والنحل، ومَن لا عقل له من الأطفال، وغير ذٰلك. والخشوع ضده؛ لأنه راجع إلى السكون، وقد فُسِّر به لغة؛ كما فُسِّرَ الطرب بأنه خفة تصحب الإنسان من حزن أو سرور.

قال الشاعر:

طَرَبَ الـوَالِـهِ أَوْ كَالمُخْتَبِـلْ

والتَّطريب: مدُّ الصوت وتحسينه.

وبيانه أن الشعر المغنَّى به قد اشتمل على أمرين:

**أحـدهما**: ما فيه من الحكمة والموعظة، وهٰذا مختصٌّ بالقلوب، ففيها تعمل، وبها تنفعل، ومن هٰذه الجهة يُنْسَب السماع إلى الأرواح.

**والثـاني**: ما فيه من النغمـات المرتبة على النسب التلحينية، وهو المؤثر في الطبائع، فيهيجها إلى ما يناسبها، وهي الحركات على اختلافها.

فكـل تأثـر في القلب من جهـة السماع تحصل عنه آثار السكون والخضوع؛ فهو رقة، وهو التواجد الذي أشار إليه كلام المجيب، ولا شك أنه محمود.

وكل تأثر يحصل عنه ضد السكون؛ فهو طرب لا رقة فيه ولا تواجد، ولا هو ـ عند شيوخ الصوفية ـ محمود.

لكن هٰؤلاء الفقراء ليس لهم من التواجد ـ في الغالب ـ إلا الثاني المـذمـوم، فهم إذاً متـواجـدون بالنغم واللحون، لا يدركون من معاني الحكمة شيئاً، فقد باؤوا إذاً بأخسر الصفقتين، نعوذ بالله.

وإنما جاءهم الغلط من جهة اختلاط المَناطَيْن عليهم، ومن جهة أنهم استدلوا بغير دليل:

فقوله تعالى: ﴿**فَفِرُّوا إِلى اللهِ**﴾، وقوله: ﴿**لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً**﴾؛ لا دليل فيه على هٰذا المعنى.

وكـذٰلـك قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَامُوا فَقَالوا رَبُّنَا**﴾؛ أين فيه أنهم قاموا يرقصون، أو يزفنون، أو يدورون على أقدامهم، ونحو ذٰلك؟

فهو من الاستدلال الداخل تحت هٰذا الجواب.

ووقع في كلام المجيب لفظ السماع غيرَ مفسَّر، ففَهِمَ منه المحتجُّ أنه الغناء الذي تستعمله شيعته، وهو فهمُ عموم الناس، لا فهم الصوفية، فإنه عندهم يُطلَق على كل صوت أفاد حكمة يخضع لها القلب، ويلين لها الجلد، وهو الذي يتواجدون عنده التواجد المحمود.

فسماع القرآن عندهم سماع، وكذٰلك سماع السنة وكلام الحكماء والفضلاء، حتى أصوات الطير وخرير الماء، وصرير الباب.

ومنه سماع المنظوم أيضاً إذا أعطى حكمة، ولا يستمعون هٰذا الأخير إلا في الفرط، وعلى غير استعداد، وعلى غير وجه الالتذاذ والاضطراب، ولا هم ممَّن يداوم عليه أو يتخذه عادة؛ لأن ذٰلك كله قادح في مقاصدهم التي بنوا عليها.

ولما طال الزمان وبعدوا عن أحوال السلف الصالح؛ أخذ الهوى في التفريع في السماع، حتى صار يستعمل منه المصنوع على قانون الألحان، فتعشقت به الطباع، وكثر العمل به ودام ـ وإن كان قصدهم به الراحة فقط ـ فصار قذى في طريق سلوكهم، فرجعوا به القهقرى.

ثم طال الأمد حتى اعتقده الجهَّال في هٰذا الزمان وما قاربه أنه قربةٌ وجزءٌ من أجزاء طريقة التصوف، وهو الأدهى.

فمن طلب خلاص نفسه؛ تثبَّت حتى يتضح له الطريق، ومن تساهل؛ رمَتْه أيدي الهوى في معاطب لا مخلصَ له منها إلا ما شاء الله»(١) أ. هـ مختصراً.

أيها العبد الخاشع! قد تبين لك من أقوال هٰؤلاء المحققين ضلالة الصوفية، وأنهم قطاع الطريق إلى الله، ولذٰلك؛ لا تهولنَّك جعجتهم، ولا تصدَّنَّك تهويلاتهم، واسمع ما يقوله لك العالم الرباني ابن قيم الجوزية:

«وإياك وترَّهات القوم، وخيالاتهم، ورعوناتهم، وإن سمَّوْك محجوباً؛ فقل: اللهم زِدْني من هٰذا الحجاب الذي ما وراءه إلا الخيالات، والتُّرَّهات، والشطحات.

فكليم الرحمٰن وحده مع هٰذا لم تتجلَّ الذات له، وأراه ربه ـ تعالى ـ أنه لا يثبت لتجلِّي ذاته، لمَّا أشهده من حال الجبل، وخر الكليم صعِقاً، مغشياً عليه، لمَّا رأى ما رأى من حال الجبل عند تجلِّي ربه له، وإن لم يكن تجلياً مطلقاً.

فإذا شهد لك المخدوعون بأنك محجوب عن ترَّهاتهم وخيالاتهم؛ فتلك الشهادة لك بالاستقامة، فلا تستوحش منها، وبالله التوفيق، وهو المستعان»(٢) أ. هـ.

---

(١) «الاعتصام»: الشاطبي، (١ / ٢٧٥ ـ ٢٨٥).

(٢) «مدارج السالكين»: ابن قيم الجوزية، (٢ / ٥١٩ ـ ٥٢٠).

# ( ١١ )
# أُمورٌ تُعين على الخُشوع

**(١١ ـ ١) معرفة الله ـ جل جلاله ـ بأسمائه الحسنى وصفاته العليا:**

اعلم أيها العبد المنيب أن الخشوع في القلوب يتفاوت بحسب تفاوت معرفتها لِمَن خشعت له، وبحسب تفاوت مشاهدة القلوب للصفات الموجبة للخشوع.

فمِن خاشع لقوَّة مطالعته لقرب الله منه، واطِّلاعه على سره المقتضي للاستحياء منه ـ تعالى، ومراقبته في الحركات والسكنات.

ومِن خاشع لمطالعته لكمال الله وجماله، المقتضي لمحبته والشوق إلى لقائه ورؤيته.

ومن خاشع لمطالعته شدة بطشه وانتقامه وعقابه، المقتضي الخوف منه.

والسعيد مَن اجتمعت هٰذه الأمور في قلبه؛ لأنه سيجد حلاوة الإيمان التي تقود إلى الخشوع والسكينة والاطمئنان.

**(١١ ـ ٢) العلم:**

أكثر الناس لا يعلمون ولو بدا في الظاهر أنهم علماء، وأنهم يعرفون الكثير؛ لأن علمهم سطحيٌّ يتعلق بظواهر الحياة، ولا يسبر غورها؛ ليعرف سننها الثابتة، وقوانينها الأصيلة، ويدرك نواميسها الكبرى، وارتباطها الوثيق، ثم لا يتجاوزون هٰذا الظاهر، ولا يرون ببصيرتهم ما وراءه.

وظاهر الحياة محدود مهما بدا للناس واسعاً شاملاً يستغرق جهودهم

بعضُه ولا يستقصونه في حياتهم المحدودة ولو اجتمعوا له.

والحياة كلها طرف صغير من ملكوت الله الهائل، الذي تحكمه نواميس مستكِنَّة في كيانه وتركيبه.

والذي لا يتَّصِلُ قلبه بخالق هٰذا الوجود، ولا يشعر بسننه التي لن تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً؛ يظل ينظر وكأنه لا يرى، ويبصر الشكل الظاهر والحركة الدائرة، ولكن لا يدرك حكمته، ولا يعيش بها ومعها، وأكثر الناس كذٰلك.

إن المعرفة الحقة تمنح صاحبها صفاء يفتح البصيرة، ويمنح القلب نعمة الرؤية المدرِكة؛ لأنها العلم الحق الذي يدرك الحق، فهو اتصال بالحقائق الثابتة، وليس التقاط للمعلومات المفردة المنقطعة التي تزدحم في الذهن، ولا تمتد وراء الظواهر المحسوسة، فتلد مسخاً من القيم والتصورات.

إن الذي لا يدرك اللب ويعرف، ولا ينتفع بما يرى ويسمع وما يجرب، ولا ينتهي إلى حقائق ثابتة من وراء المشاهدات والتجارب... إنهم جامعو معلومات وليسوا بعلماء.

وقد وصفهم الخبير بهم، فقال:

**﴿ولٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمونَ. يَعْلَمونَ ظَاهِراً مِن الحَيَاةِ الدُّنْيا وهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلونَ﴾** [الروم: ٦ ـ ٧].

وهٰذا العلم المبتوت عن غايته وثمرته أخو الجهل؛ لأنه يتمحَّضُ عن ركامٍ مشوَّهٍ من السلوك السَّيِّىء.

قال رسول الله ﷺ:

«إن الله يبغض كل جَعْـظَرِيٍّ[1] جَوَّاظٍ[2] سخَّـابٍ[3] في الأسواق، جيفةٍ[4] بالليل، حمارٍ بالنهار، عالمٍ بأمر الدنيا، جاهلٍ بأمر الآخرة»[5].

واستمـع أيهـا العبـد الخاشع لنبإ هٰؤلاء القوم قرآناً يُتلى آناء الليل وأطراف النهار؛ لعلك تزداد خشوعاً.

قال ـ عزَّ شأنه:

**﴿واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذي آتَيْنَاهُ آياتِنا فانْسَلَخَ مِنْها فأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكَانَ مِنَ الغَـاوِينَ . ولَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِها ولٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إلى الأَرْضِ واتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذٰلكَ مَثَلُ القَوْمِ الَّـذينَ كَذَّبوا بآياتِنَا فاقْصُصِ القَصَصَ لعَلَّهُمْ يَتفَكَّرونَ . سَاءَ مَثَلاً القَوْمُ الذينَ كَذَّبُوا بآياتِنا وأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمونَ﴾** [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٧].

إنسـان يؤتيه الله آياتـه، ويخلع عليه سابـغ فضله، ويكسوه حلل العلم، ويمنحـه الفرصة الكاملة للارتفاع عن أوحال الأرض، والاتصال

---

(١) الفظّ الغليظ المتكبّر.

(٢) الجَموع المَنوع.

(٣) بالسين المهملة؛ كالصخاب: كثير الضجيج والخصام.

(٤) كالجيفة؛ لأنه يعمل كالحمار طول النهار لدنياه شحّاً وحرصاً، فإذا أقبل الليل؛ ارتمى طوال ليله كالجيفة التي لا تتحرك.

(٥) أخرجه ابن حبان (٧٢)، والبيهقي (١٠ / ١٩٤)؛ من طريق أحمد بن يوسف السُّلمي؛ قال: أخبرنا عبدالرزاق؛ قال: أخبرنا عبدالله بن سعيد بن أبي هند عن أبيه عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (وذكره).

قلت: وهٰذا إسناد حسن، رجاله ثقات؛ غير عبدالله بن سعيد بن أبي هند، وهو الفزاري، فإنه صدوق.

بسبب السماء، وسلوك سبيل الهدى، ولكنه أبى إلا انسلاخاً. . . فها هو ينسلخ من آيات الله، ويتجرَّد من لباسه الواقي، فينحرف عن الهدى إلى الهوى، فيلتصق بالطين.

إنها وقفة تذكُّرٍ يفرضها هٰذا المثل المضروب في صورة نبإ؛ لأنه يقع كثيراً. . . وما أكثر ما يتكرر هٰذا المثل في حياة البشر! ما أكثر الذين يُعْطَوْن هٰذا الفضل وتلك الفرصة ثم لا يهتدون! إنما يتخذون هٰذا العلم وسيلة لتحريف الكلم عن مواضعه، واتباع الهوى به؛ هواهم وهوى الطغاة الذين يملكون لهم - في وهمهم - عرض الحياة الدنيا. . . لذٰلك تراهم يستخدمونه في التحريفات المقصودة، والفتاوى المطلوبة، فيخلع على هٰذه الأوحال رداء الدين وعناوينه.

إنه المسخ الذي يقصه الله - عز وجل - عن صاحب هٰذا النبإ:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾.

إنهم يلهثون وراء الحطام الذي يملكه الحكام. . .

والدنيا جيفة، وطلابها كلاب.

إنه العلم الذي لا يعصم صاحبه أن تثقل به الشهوات والرغبات فترديه، فيخلد إلى الأرض لا ينطلق من أوحالها وأثقالها وأحمالها. . . وإنما يُخَدِّم علمَه لهواه، فيتبعه الشيطان، ويلزمه، ويقوده من خطام الهوى.

ولذٰلك؛ فإن العلم ليس لمجرد المعرفة، ولكنه عقيدة دافعة لتحقيق العبودية لله في القلوب والدنيا.

إن العلم النظري السطحي لا ينشىء في الواقع شيئاً؛ لأنه معرفة باردة لا تعصِم من الهوى، ولا ترفع من ثقلة الشهوات، ولا تدفع الشيطان، بل تذلل له الطريق وتعبِّدها.

قال ـ تعالى:

**﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ وأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ وخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وقَلْبِهِ وجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلا تَذَكَّرونَ . وقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنا الدُّنْيا نَمُوتُ ونَحْيَا ومَا يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ ومَا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾** [الجاثية: ٢٣ ـ ٢٤].

وهٰكذا ترى أيها العبد المنيب أن هٰؤلاء الفئام مِن الناس؛ كل ارتباطهم بالدنيا والأرض فحسب... وهم عن الآخرة هم غافلون... لأنهم لا يدركون حكمة النشأة، فيغفلون عن الآخرة، ولا يقدِّرونها حقَّ قدرها، ولا يحسبون حسابها، ولا يعلمون أن الآخرة نهاية خطِّ المسير وبداية خطِّ المصير؛ لا تتخلف ولا تميد.

إن الغفلة عن الدار الآخرة تجعل كل مقاييس الغافلين تختلُّ، وتؤرجح في أيديهم ميزان القيم، فلا يملكون تصوُّراً صحيحاً لأحداث الحياة وقيمها، ويظلُّ علمهم بها ظاهراً سطحيّاً ناقصاً؛ لأن حساب الآخرة في قلب الإنسان يغيِّر نظرته لكل ما يقع في الأرض، فحياته في هٰذه الأرض إن هي إلا مرحلة عابرة من رحلته الطويلة، ونصيبه من الأرض قليلٌ من نصيبه في الآخرة.

ولا ينبغي للمرء أن يبني حكماً على مرحلة قصيرة ونصيب قليل!!

ومن ثم؛ لا يلتقي إنسان يؤمن بالآخرة ويحسب حسابها مع آخر

يعيش لهٰذه الدنيا وحدها ولا يمد عينيه إلى ما وراءها.

فلا يلتقيان في تقدير أمر واحد من أمور هٰذه الحياة، ولا قيمة من قيمها الكثيرة.

ولا يتفقان في حكم واحد على حادث من الأحداث، أو حالة من الحالات، أو شأن من الشؤون.

فلكل منهما ميزان.

ولكل منهما زاوية للنظر.

ولكل منهما ضوء يرى عليه الأشياء والأحداث والقيم.

هٰذا يرى ظاهراً من الحياة الدنيا... وهٰذا يدرك ما وراء الظاهر من روابطَ وسننٍ ونواميسَ تنتظم الظاهر والباطن، والغيب والشهادة، والدنيا والآخرة، والموت والحياة، والماضي والحاضر والمستقبل.

هٰذا هو أفق العلم الوضيء الواسع الشامل الذي ينقل الإسلامُ البشريةَ إليه، ويرفعها فيه مكاناً عليّاً.

إن فطرة هٰذا الكون كله توحي بأنه قائم على الحق، ثابت على الناموس، لا يضطرب، ولا تتفرَّق به السبل، ولا يصطدم بعضه ببعض، ولا يسير وَفق المصادفة العمياء، ولا الطبيعة الصمَّاء، ولا وَفق الهوى المتقلب.

إنه يمضي في نظامه الدقيق المحكم المقدَّر تقديراً.

وإن من مقتضيات هٰذا الحق الذي يقوم عليه الوجود أن تكون هناك آخرةٌ يتمُّ فيها الجزاء على العمل، ويَلْقى الخير والشر عاقبتها كاملة، إنما كل ذٰلك إلى أجله المسمى؛ وَفْقَ الحكمة البالغة، وكل أمر يجيء في

موعده الذي لا يتخلَّف ولا يستقدم . . .

وإذا لم يعلم البشر متى الساعة؛ فإن هٰذا ليس معناه أنها لا تكون، ولكن تأجيلها يغري ويخدع الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون.

ولذٰلك؛ فإن الإسلام يقدِّم العلم عقيدةً دافعةً محيية موقظةً رافعةً مستعليةً؛ تدفع إلى الإيمان؛ لتحقيق مقتضاها العملي فور استقرارها في القلب، وتحيي القلب، فيخشع لمولاه الحق، ويفيض بحبه، فتستيقظ الجوارح، فترجع إلى فطرتها الأولى، فتسمو الغاية، ويرتفع القصد، فلا تثقله جاذبية الطين، وإلف المكان، ولا يخلد إلى الأرض أبداً.

ويقدم الإسلام العلم منهجاً للنظر والتدبُّر يتميز دون مناهج البشر في النظر؛ لأنه جاء لينقذ البشر من قصور مناهجهم وأخطائها وانحرافاتها تحت لعب الأهواء، وثقلة الشهوات، وإغواء إبليس.

قال الحق ـ جل شأنه:

**﴿سَنُرِيْهِمْ آياتِنَا في الآفَاقِ وفي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شيءٍ شَهِيْدٌ . أَلا إِنَّهُمْ في مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بكُلِّ شيءٍ مُحيطٌ﴾** [فصلت: ٥٣ ـ ٥٤].

إنه وعد من الله لعبيده أن يطلعهم على شيء من خفايا هٰذا الكون، ومن خفايا أنفسهم على السواء.

وعد أن يريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم، حتى يتبيَّن لهم أنه الحق: هٰذا الإله الحق، وهٰذا الدين القيِّم، وهٰذا الكتاب المجيد، وهٰذا الرسول الكريم الذي يقود البشرية خطوةً خطوةً في الطريق الصاعدة إلى

قمة الحياة السامقة، وَفْق ما أراه الله.

وفي أثناء المسير يُبَيِّن للعالمين نظام حياتهم، وأصول شريعتهم، وقـواعـد تعـاملهم الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي، ويصوغ عقـولهم بقـواعـد منضبـطة في شتى علومهم الكونية والدنيوية. . . وفي نفـوسهم حلاوة الإيمـان ودفعته، وجدية الشريعة وواقعيتها، واحتياجات دنياهم وتوجيهاتها.

ولقـد صدق الله وعـده، فكشف لهم عن آياتـه في الآفاق خلال القرون التي تلت هٰذا الوعد، وكشف لهم عن آياته في أنفسهم، وما يزال يكشف لهم عن جديد.

وينظر الإنسان، فيرى البشر قد كشفوا كثيراً منذ ذٰلك الحين، فقد تفتَّحت لهم الآفاق، ولم تكن فتوح العلم في أقطار السماوات والأرض بأقل منها في أغوار النفس.

لقد عرفوا أشياء كثيرة، وما يزال الإنسان في الطريق:

**﴿وَقُـلِ الحَمْـدُ للهِ سَيُـرِيكُمْ آياتِهِ فتَعْرِفُونَها ومَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلونَ﴾** [النحل: **٩٣**].

لقد رأوها وقرؤوها وعرفوها. . . فهل شكروها؟!

إن القراءة في صحائف كتاب الكون المفتوح تورث القلب خشية وخشوعاً؛ كما قرره كتاب الله المُنَزَّل على مصطفاه من خلقه محمد ﷺ.

قال العزيز الغفور:

**﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْـزَلَ مِنَ السَّمـاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ومِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيْضٌ وحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُها وغَرَابِيْبُ سُودٌ ومِنَ**

**النَّاسِ والدَّوَابِّ والأنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذٰلكَ إنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ إنَّ اللهَ عَزيزٌ غَفُورٌ﴾** [فاطر: ٢٧ ـ ٢٨].

إنهـا صفحـات رائعـة متنـوِّعـة الألوان والأجناس: الثمار المتنوعة الألوان، والجبال الملونة الشعاب، والناس، والدواب، والأنعام المتعددة الألوان...

هٰذه لفتة عجيبة إلى آية من آياته ـ تعالى ـ وهي اختلاف الألوان:

**﴿ومِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّمَاواتِ والأرْضِ واخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وأَلْوانِكُمْ إنَّ في ذٰلكَ لآياتٍ للعَالِمِينَ﴾** [الروم: ٢٢].

إنهـا آية كونية عجيبـة من الآيات الـدالَّة على صدق هٰذا الكتاب المنزَّل... آية تطوف في الأرض كلها؛ تتتبَّعُ فيها الألوان والأصباغ في عوالمهـا المختلفـة: الثمرات، والجبال، والناس، والدواب، والأنعام، فتدَعُ القلب مأخوذاً بخلق الله الذي أتقن كل شيء صنعاً، فيخشع لله، ويخضع لمنهاجه الحق الذي فَتَح هٰذه الصفحات من كتاب الكون الجميل العجيب التكوين والتلوين وقَلَّبَها؛ قائلاً:

**﴿إنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ﴾**.

هٰذا هو المنهج الإسلاميُّ في صياغة النفوس المسلمة، والحياة الإسلامية...

أمـا الدراسة النظرية ـ لمجرَّد الدراسة ـ المحجوبة عن غاية العلم وثمرته... فهٰذا هو العلم الذي ليس بعلم؛ لأنه لا يعصم من ثقلة الطين، ودفعة الهوى، وإغواء الشيطان، ولا يقدِّم للبشرية خيراً، ومَن استقرأ حياة الكفار الذين خدعهم بريق المدنية المادِّية؛ يرى ما نرى، وهو ما قرره الله

ـ سبحانه ـ في كتابه، وأشار إليه رسوله ﷺ في سنته الصحيحة.

ولـذٰلك؛ فليتق الله رجالٌ من هٰذه الأمة يتكلَّمون بلسانها، وتولَّوْا أمرها في سياسة التعليم، حجبوا مناهج التعليم العلميَّة عن الثمرة المرجوَّة منها في تعميق الإيمان بالله، وكتابه، ورسوله، واليوم الآخر، وزعموا أن هدف البحث العلميِّ هو إكساب الطالب قدرةً على تفسير الظواهر العلمية فحسب، ولـذٰلك نشأ جيلٌ ممسوخٌ، لا هم بعلم الدنيا برزوا، ولا لخير الآخرة أحرزوا.

ولذٰلك؛ فلا بد من إقصاء هٰذا المنهج الشيطاني في تدريس الموادِّ العلمية، وإعادة المنهج الرَّبَّاني؛ لتحيا القلوب وهي تنظر إلى بديع صنع الله الذي أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثم هَدى.

﴿وَلِيَعْلَمَ الذينَ أُوْتُوا العِلْمَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤمِنُوا بِهِ فتُخْبِتَ لهُ قُلُوبُهُمْ وإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذينَ آمَنُوا إِلى صَرَاطٍ مُسْتَقيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

**(١١ ـ ٣) تدبُّر القرآن:**

حثَّ العليُّ العظيم على تأمُّل مواعظ القرآن، وبيَّن أنه لا عذر في ترك التدبُّر، فإنه لو خوطِبَ بهٰذا القرآن الجبال؛ لرأيتها ـ على صلابتها ـ تَخِرُّ خاشِعَةً متصدِّعَةً من خشيةِ الله.

قالَ ـ تعالى:

﴿لَوْ أَنْزَلْنا هٰذا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُها للنَّاسِ لعَلَّهُمْ يَتَفكَّرونَ﴾ [الحشر: ٢١].

وكذٰلك القلوب المفتوحة التي تتلقَّى القرآن في وجلٍ وارتعاشٍ، وفي تأثُّر شديد تقشعرُّ منه الجلود، ثم تهدأُ النفوس، وتأنس القلوب بهٰذا

القرآن، فتلين جلودهم وقلوبهم، وتطمئنُّ بذكر الله، وتنشرحُ له، وتندى به.

قالَ ـ تعالى:

**﴿اللهُ أَنْزَلَ أَحْسَنَ الحَديثِ كِتَاباً مُتَشابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُودُهُمْ وقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللهِ ذٰلكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ومَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾** [الزمر: ٢٣].

ثم يغلبهم التأثُّر، فلا تكفي الألفاظ في التعبير عما يجيش في قلوبهم، فإذا الدموع تنطلق معبرةً عن هٰذا التأثُّر الغامر، الذي يتلوه اطمئنانٌ باهرٌ.

قال ـ عزَّ وجلَّ:

**﴿إنَّ الَّذينَ أُوْتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إذا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ للأَذْقَانِ سُجَّداً . ويَقُولونَ سُبْحانَ رَبِّنا إنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً . ويَخِرُّونَ للأَذْقانِ يَبْكُونَ ويَزِيْدُهُمْ خُشُوعاً﴾** [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩].

**(١١ ـ ٤) ذكر الله:**

إن الخشوع لذكر الله حقيقةٌ عميقةٌ، يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، فاتَّصلت بذكر الله، يعرفونها، ولا يملكون بالكلمات أن ينقلوها إلى الآخرين، الذين لم يذوقوها؛ لأنها فوق الكلمات، إنها طمأنينة تسري في القلب، فيَسْتَرْوِحُها ويهشُّ لها، ويندى بها، ويستريح إليها، ويشعر بالثَّلَجِ يسري في خلاياه.

وحسبك إخبار مقلِّب القلوب:

**﴿الَّذينَ آمَنُوا وتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ**

الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

واعلم أيها العبد المطمئنُّ قلبه بذكر الله أن فوائد الذكر تفوق الحصر، وقد أورد فيها بحثاً نفيساً ماتعاً ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ في كتابه المستطاب «الوابل الصيِّب»، وقد أخرجت «صحيحه»، فانظره غير مأمور.

○○○○○




# ( ١٢ )

# آثار الخشوع على العبادة والعبّاد

## (١٢ ـ ١) إحياء العمل :

إن الخشوع يبعث الحياة في العمل، فيؤتي ثمرته المرجوّة وغايته المقصودة.

قالَ ـ تعالى :

﴿واسْتَعِيْنُوا بالصَّبْرِ والصَّلاَةِ وإنَّها لَكَبِيْرَةٌ إلا عَلَى الخَاشِعِينَ﴾ [البقرة : ٤٥].

فالصلاة التي أمر الله بالاستعانة بها هي الصلاة ذات الخشوع، وفي هٰذا دلالة على أن الخشوع هو الذي يُصَيِّر الصلاة وسيلةً للاستعانة بها، فتؤدّي هدفها المرجوَّ منها.

## (١٢ ـ ٢) يجعل العبادة محبَّبةً للمسلم :

إذا فقد القلب الخشوع ؛ أصبحت العبادة ثقيلةً على النفس، ولذٰلك أخبر الرسول ﷺ :

«ليس صلاةٌ أثقل على المنافقين من صلاة الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيهما ؛ لأتوْهُما ولو حبواً»(١).

لأنه لا خشوع عندهم، وإنما هو خشوع النفاق الذي يظهر أمام الناس رياءً وسمعةً في الصلوات الأخرى، لكنَّ صلاة الفجر والعشاء مَظِنَّةٌ

---

(١) أخرجه البخاري (٢ / ١٤١ ـ الفتح)، ومسلم (٥ / ١٥٤ ـ نووي)، وغيرهما ؛ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

ألا يراهم الناس، فتكون ثقيلةً عليهم، ولا يقومون إلى الصلاة إلا كسالى.

قالَ ـ تعالى:

﴿إنَّ المُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وهُوَ خَادِعُهُمْ وإذا قَامُوا إلى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤونَ النَّاسَ ولا يَذْكُرونَ اللهَ إلا قَلِيلاً﴾ [النساء: ١٤٢].

إنهم لا يقومون إلى العبادة بحرارة الشوق إلى لقاء الله، والوقوف بين يديه، ومناجاته... إنهم قوم يراؤون الناس، ومن ثَمَّ يقومون كسالى متثاقلين إلى الأرض؛ كالذي هدَّه اللُّغوب من عمل ثقيلٍ أو سخرةٍ شاقَّةٍ، فصارت حركاتهم وسكناتهم كلُّها ترائي الناس، فإذا رأوا أعين الناس شاخصةً إليهم؛ نشطوا في العبادة، وزيَّنوها، وبهرجوها؛ لأنهم أمام مَن يتوجَّهون إليه، والقلب لا يستحضر إلا مَن ملأه حبّاً.

ولكن المسلم الذي خشع قلبه لله، يعلم أن الله معه في خلوته وجلوته، فهو يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه؛ فإنه يراه.

ولذلك ينشط إلى طاعة ربه، وتكون نفسه جامحةً في التلذُّذ بتلك المناجاة؛ لأنها موقنةٌ بلقائه، وأنها راجعةٌ إليه.

قالَ ـ تعالى:

﴿واسْتَعِيْنُوا بالصَّبْرِ والصَّلاَةِ وإنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إلَّا عَلَى الخَاشِعِيْنَ. الَّذينَ يَظُنُّونَ إنَّهُمْ مُلاَقو رَبِّهِمْ وأَنَّهُم إليهِ راجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥ ـ ٤٦].

فهذه الصلاة كبيرةٌ وثقيلةٌ على قلبٍ لا يخشع، ولكنه إذا خشع؛ لم يشعر بشيءٍ من الثقل أو الكسل أو الخمول.

**(١٢ ـ ٣) المسارعة إلى الإذعان إلى الحق والدعوة إليه:**

قالَ ـ تعالى:

﴿وإذا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إلى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيْضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . ومَا لَنَا لا نُؤْمِنُ باللهِ ومَا جَاءَنَا مِن الحَقِّ ونَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ القَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٣ ـ ٨٤].

مشهدٌ للثُّلَّة المؤمنة التي اهتزَّت مشاعرها، ولانت قلوبها، ففاضت أعينهم بالدمع؛ لِما عرفوا من الحق . . .

ولكن لا يكتفون بهٰذا الفيض من الدمع، ولا يقفون موقفاً سلبيّاً من الحق الذي تأثَّروا به هٰذا التأثُّر العميق، والشعور بالحق الذي يحمله، والإحساس بما له من سلطان.

إنهم يتقدَّمون؛ ليتَّخذوا من هٰذا الحق موقفاً إيجابيّاً صريحاً، موقف القبول لهٰذا الحق، والإيمان به، والإذعان لسلطانه، وإعلان هٰذا الإيمان، والدعوة إليه في لهجة عميقة صريحة مدوِّية.

إنهم يعلِنون لربِّهم إيمانَهم بهٰذا الحق الذي عرفوه.

ثم يَدْعونه أن يَسْلُكَهُمْ في نظم الشاهدين لهٰذا الحق، القائمين عليه في الأرض . . . تلك الأمة المسلمة التي تشهد لهٰذا الدين بأنه الحق، وتؤدي هٰذه الشهادة دعوةً بلسانها وعملها؛ لإقرار هٰذا الحق في حياة البشر.

ثم بعد ذٰلك يستنكرون على أنفسهم أن يعوِّقهم معوِّقٌ عن الإيمان بالله، أو أن يسمعوا هٰذا الحق ثم لا يؤمنوا به.

إنه موقفٌ صريحٌ قاطعٌ تجاه ما أنزله الله إلى رسوله ﷺ من الحق . . . استماعٌ وإصغاءٌ يُثْمِرُ المعرفة الحقَّة التي تورِثُ القلب تأثُّراً عميقاً، فتفيض العينُ الدمعَ الغامر الدَّالَّ على الإيمان الجاهر بالانضمام

إلى قافلة الدُّعاة القائمين بالحق.

**(١٢ ـ ٤) توجُّه الطاقة وتوحيد الاتِّجاه:**

قالَ ـ تعالى:

**﴿ولِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ على مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيْمَةِ الأنْعَامِ فإلٰهُكُمْ إلٰهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وبَشِّرِ المُخْبِتِينَ . الَّذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ والصَّابِرِينَ عَلى مَا أَصَابَهُمْ والمُقِيمِي الصَّلاةِ ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾** [الحج: ٣٤ ـ ٣٥].

وفي هٰذا دليلٌ على أن الخشوع يوحِّد المشاعر والاتجاهات، حيث تتوجَّه كلُّها إلى الله ـ تعالى، وبهٰذا يتمُّ توجيه العمل والنشاط والعبادة إلى تلك الغاية الواحدة، وبذٰلك تصطبغ الحياة كلُّها بصِبْغَة الإيمان.

وذٰلـك لأن العمل منبثقٌ عن الإيمان، وقائمٌ عليه، وهو تطبيقٌ لهٰذا الإيمان، ودليلٌ عليه... والمهمُّ أن تتوجَّه الحياة كلُّها إلى تلك الغاية، فتتوحَّدُ الطاقة، ويتوحَّد الاتجاه، ولا تتمزَّق النفس الإنسانية في اتجاهاتٍ شتَّى.

**(١٢ ـ ٥) إحياء الأمة وانتصارها:**

قال رسول الله ﷺ:

«إنَّما ينصُرُ اللهُ هٰذه الأمَّة بضعيفها؛ بدعوتهم، وصلاتهم، وإخلاصهم»(١).

هٰكـذا يقـرِّر الرسول الكريم أن الخشوع ـ وتلك عناصره: الدعاء المتضـرع، الصـلاة الخـاشعـة، الإخلاص ـ سبب في نصر الأمَّة على

(١) «صحيح الترغيب والترهيب» (١ / ٦).

أعـدائهـا؛ لأنـه يوحِّـد الطاقة والاتجاه، فتغدو الأمة ذات قوةٍ وتمكينٍ، تسـوسها قيادةٌ واحدةٌ، تقضي على التَّنازع والفشل الذي يضعف الأمة، ويذهب قوَّتَهـا هدراً. . . فما يتنازع الناس إلا حين تتعدَّد جهات القيادة والتوجيه، حيث يكون الهوى المطاع هو الذي يدير الآراء والأفكار، فإذا خشع الناس لله؛ انتفى السبب الأول للنِّزاع، وهو تعدُّد الولاء، وتشتُّت الاتجاه الذي يعقبه هدر طاقة الأمة، وذهاب ريحها.

ومَن أبصر منحنى الهزيمة الذي تعاقَب على أمَّتنا المعاصرة؛ علم صدق ما قرأ في هٰذه السطور.

**(١٢ ـ ٦) إجابة الدُّعاء:**

هٰؤلاء الضعفاء المستَضْعَفون في الأرض، الذين يتخطَّفُهُم الطُّغاة هم سببٌ من أسبـاب العزَّة لهٰذه الأمة؛ لأنهم يدعون لهٰذه الأمة بالنصر والتمكين والعزَّة، فيستجيب الله دعاءهم؛ لأن قلوبهم متصلةٌ بربها.

**﴿أَمَّنْ يُجِيْبُ المُضْـطَرَّ إذا دَعَـاهُ ويَكْشِفُ السُّوءَ ويَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأرْضِ أَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ قَليلاً مَا تَذَكَّرونَ﴾** [النحل: ٦٢].

وبذٰلك فهم يسألون الله النصر وهم موقِنون بالإجابة؛ إجابةً لقول متبوعهم بحقٍّ ﷺ:

«ادْعُوا اللهَ وأنتُم موقِنون بالإجابة، واعلموا أن اللهَ لا يستجيبُ دعاءً مِن قلبٍ غافلٍ لاهٍ»(١).

وهٰكذا يتبيَّن لذي عينين أن الحريص على مصالح هٰذه الأمة في

---

(١) حسن بشواهده؛ كما بيَّنته في «النبذة المستطابة في الدعوات المستجابة»، نشر دار ابن الجوزي، السعودية.

الحقيقة هم أبناؤها الضعفاء الذين ذاقوا مرارة الذلِّ الذي أصاب أمَّتهم، فهم في دعوة دائبةٍ قولاً وعملاً وقصداً؛ ليزيلوا ما حلَّ ببني دينِهم على أيدي أكابر مجرمي هٰذه الأمة، الذين غذوا بالنعيم، فكان بينهم وبين الشعور بمطالب هٰذه الأمة حجاباً، وإن حاولوا الشعور بمطالبها؛ ظنُّوها كِسرة خبزٍ وقطرةَ ماءٍ. . . أولٰئك كالأنعام أولٰئك هم الغافلون.

○○○○○




# (١٣)
# أحاديثُ لا تصحُّ في الخشوعِ

لقد لفتَ نظري أثناء جردي لمظانِّ الخشوع تكرارُ أحاديثَ منسوبةٍ للرسول ﷺ، ولكنها لا تثبت من حيث الصناعة الحديثية، فأحببت بيانها؛ نصحاً لله ورسوله وللمسلمين؛ مشيراً إلى أن شهرتها لا تلازم صحَّتها:

**(١٣ ـ ١) «لو خشع قلب هٰذا؛ لخشعت جوارحه»**:

أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول» (ص ١٨٤ و٣١٧ و٣٥٢).

قلت: وإسناده موضوع.

آفته سليمان بن عمرو؛ قال ابن عدي في «الكامل» (٣ / ١٠٠): «اجتمعوا على أنه يضع الحديث».

والحديث ضعَّفه جماعة من العلماء؛ منهم:

١ ـ الشيخ زكريا الأنصاري في تعليقه على «تفسير البيضاوي» (ق ٢٢ / ٢).

٢ ـ ابن رجب في «الخشوع في الصلاة» (ص ١٢).

٣ ـ رمز له السيوطي في «الجامع الصغير» (٧٤٤٧ ـ فيض القدير) بالضعف.

٤ ـ المناوي في «فيض القدير» (٥ / ٣١٩).

٥ ـ وحكم عليه شيخُنا بالوضع في «إرواء الغليل» (٣٧٣)، و«سلسلة الأحاديث الضعيفة» (١١٠).

**وروي موقوفاً على حذيفة بن اليمان وعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما.**

أخرجه ابن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١٥٠): حدثنا إسحاق: ثنا الوليد بن مسلم عن ثور بن يزيد؛ قال:

رأى حذيفة بن اليمان رجلاً يصلي، يعبث بلحيته، فقال:

«لو خشع قلب هٰذا سكنت جوارحه».

قلت: إسناده واهٍ، فيه علّتان:

**الأولى**: الوليد بن مسلم؛ يدلس تدليس التسوية، ولم يصرح بالتحديث.

**الثانية**: الانقطاع بين ثور بن يزيد وحذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه.

وأما أثر عمر بن الخطاب؛ فذكره ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٨ / ٢٧٣)، ولم ينسبه، ولم أقف على مَن خرَّجه؛ فلينظر.

**وروي مقطوعاً على سعيد بن المسيِّب ـ رحمه الله.**

وله عنه طريقان:

١ ـ من طريق معمر عن رجل عن سعيد بن المسيب أنه رأى رجلاً يعبث في صلاته، فقال:

«لو خشع قلب هٰذا؛ خشعت جوارحه».

أخرجه عبد الله بن المبارك في «الزهد» (١١٨٨)، وابن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١٥٥).

قلت: وفي سنده رجل لم يسم؛ فالإسناد ضعيف.

وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (**٣٣٠٨**) عن معمر به، ولكنه سمى الرجل أبان.

قلت: هو أبان بن أبي عياش؛ متروك.

فالإسناد ضعيف جدّاً.

٢ ـ وأخرجه عبد الرزاق (**٣٣٠٩**) عن الثوري عن رجل؛ قال: رآني ابن المسيب أعبث بالحصى في الصلاة، فقال:

«لو خشع قلب هٰذا؛ خشعت جوارحه».

قلت: إسناده ضعيف، فيه رجل لم يسمَّ.

وبهٰذا التخريج يتبيَّن أن الحديث لا يصحُّ مرفوعاً، ولا موقوفاً، ولا مقطوعاً، والمرفوع أشدُّ ضعفاً، بل هو موضوع.

**(١٣ ـ ٢) «العلم علمان: علم باللسان، وعلم بالقلب، فعلم القلب النافع، وعلم اللسان حجة الله على ابن آدم»:**

روي مرفوعاً ومرسلاً ومقطوعاً:

**أما المرفوع**؛ فعن أنس بن مالك وجابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما.

**(١٣ ـ ٢ ـ أ) حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه:**

أخرجه ابن النجار في «ذيل تاريخ بغداد» (١٠ / ٨٨ / ٢)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (**٨٩**)؛ من طريق عبدالسلام بن صالح: ثنا يوسف بن عطية: ثنا قتادة عن الحسن عن أنس مرفوعاً.

قلت: إسناده موضوع، وقد أعله ابن الجوزي بأبي الصلت، وقال: «وهو كذاب بإجماعهم».

وهو الصواب.

وانظر ما علقه الشيخ المعلمي على «الفوائد المجموعة» (ص ٢٩٣)؛ فإنه نفيس.

وفيه أيضاً يوسف بن عطية ـ وهو الصفَّار ـ أجمعوا على ضعفه.

**(١٣ ـ ٢ ـ ب) حديث جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه:**

أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٤ / ٣٤٦)، ومن طريقه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٨٨): أخبرنا محمد بن عمر بن بكير النجار: حدثنا محمد بن إسماعيل بن العباس المستملي: حدثنا أبو عمرو أحمد بن الفضل بن سهل القاضي التعزّي ـ قدم علينا من تعز سنة تسع وثلاث مئة ـ حدثنا عبدالله بن سعيد أبو سعيد الأشجّ: حدثنا يحيى بن يمان عن هشام عن الحسن عن جابر مرفوعاً.

قلت: إسناده ضعيف، فيه يحيى بن يمان؛ سيىء الحفظ، وبه أعله ابن الجوزي في «العلل»، فقال:

«وفي الطريق الأول يحيى بن يمان؛ قال أحمد: ليس بحجة في الحديث. وقال أبو داود: يخطىء في الأحاديث ويقلبها».

وهو الصواب.

وانظر ترجمته في «ميزان الاعتدال» (٤ / ٤١٦).

لكن محقق «العلل» الأستاذ إرشاد الحق حسَّن إسناده؛ فلم يصب.

وجوَّد إسناده الحافظ العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (١ / ٥٩)، ولم يرتضِ إعلال ابن الجوزي للإسناد بيحيى بن يمان؛ كما في «فيض القدير» (٤ / ٣٩١)، فأخطأ.

**(١٣ ـ ٢ ـ ت) وروي مرسلاً عن الحسن :**

أخرجه الدارمي (١ / ١٠٢)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١ / ١٩٠)؛ من طريق هشام عنه مرسلاً .

**(١٣ ـ ٢ ـ ث) وأما المقطوع ؛ فروي عن الحسن من قوله :**

أخرجه الدارمي (١ / ١٠٢) : أخبرنا مكي بن إبراهيم : ثنا هشام عن الحسن ؛ قال :

«العلم علمان ، فعلم في القلب ، فذٰلك العلم النافع ، وعلم على اللسان ، فذٰلك حجة الله على ابن آدم» .

قلت : رجاله ثقات ، لكن إسناده ليس بالمستقيم ؛ لأن رواية هشام عن الحسن فيها مقال ؛ لأنه كان يرسل عنه .

وبهٰذا تبين أنه لا يصح مرفوعاً ولا مرسلاً ولا مقطوعاً .

○○○○○




# فهرس المواضيع والفوائد

OOOOO

طبع بإشراف
دار الصحابة
للطباعة والنشر
ص.ب ٥٠٠٦/١٣ شوران
بيروت - لبنان


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com






دار ابن الجوزي